الباب الرابع

المدرسة الكبرى

يـا أهـل بيـت رسـول الله حبكمـو فـرض مـن الله فـي القـرآن أنزلـه

كفـاكمو مـن عظـيم القـدر منزلـة من لـم يصل عليكم لا صـلاة لـه

"الشافعي"

obeikandl.com

في هذا الباب محاولة لرسم خطوط تقريبية للبنيان العظيم لفكر الشيعة الجعفرية "الاثنا عشرية أو الإمامية" الذي كان الإمام الصادق في طليعة بناته، والذي يحمل اسمه، وإن شاركت في رفع صرحه مدرسة كاملة من السابقين عليه، والآخذين إخذه، من تلاميذه وتلاميذهم. بدأت بالنبي عليه الصلاة والسلام، مدينة العلم، وعلي بابها. وتتابع فيها الصحابة العظماء، والتابعون وتابعو التابعين. وفي الأجيال الثلاثة الإمام علي والحسن والحسين ثم زين العابدين فالباقر فالصادق.

ثم تلمذ للإمام الصادق فريق المخضرمين ممن تعلموا على أبيه أو أبيه وجده، ومن الشباب الذين تعاونت قرائحهم في تفتيق الكلام في العقيدة، وتشقيق المعاني في الفقه، ليصبحوا للذين جاءوا بعدهم، حتى اليوم، علامات على الطريق.

وفي مشيخة هذه المدرسة ورد الفصل الأول.

والفصل الثاني يتناول أمورا أساسية في فكر المدرسة،دون حصر لتفاصيله أو تطرق للاختلاف عليه بينهم وبين أهل السنة، أو بينهم وبين فرقهم، حتى لا تخرج من إطار الصورة التي نحاول رسمها، وتنقيتها مما تبرأ منه الشيعة، وتقع التبعات فيه على الغلاة المطرودين.

وقد خصصنا بالبيان في هذا الفصل مسألتين أصوليتين، لكل منهما أثر في الفقه، سواء أكان فقه معاملات أم فقه عبادات – فبدأنا "بالحديث" وشروط قبوله، وثنينا "بالإمامة". وأضفنا كلمات عن مسائل خلافية بين المذهب الجعفري وبين غيره من المذاهب التي تتقاسم أهل السنة. تخيرناها من شتى مناحي التفكير الفقهي، لتتم أبعاد الصورة للقارئ، ويزداد جانبها الخلفي جلاء: أن الدين واحد عند أهل السنة والشيعة.

الفصل الأول

المدرسة الكبرى

ماذا لقينا من أبناء علي إذا أحببناهم قتلنا. وإذا عاديناهم دخلنا النار.

"الشعبي"

أخذ الفروع والأصول عن الإمام جعفر جمع غفير من ثقات الشيعة، ورووا ذلك لمن بعدهم على سبيل التواتر القطعي. ورواه هؤلاء، لمن خلفوهم قرنابعد قرن. فالصادق يروي علم من قبله، ويروي الأئمة من أبنائه عمله. كما يرويه تلامذته. فهو الحلقة التي تتوسط السلسلة، أو العروة الوثقى بين كتب آبائه وبين ما كتب بعده "الإمامية".

المصحف الخاص أو كتاب الأصول:

آلى أمير المؤمنين على نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول صلى الله عليه وآله، ألا يرتدي إلا للصلاة أو يجمع القرآن. فجمعه مرتبا على حسب النزول. واشار إلى عامه وخاصه. ومطلقه ومقيده. ومحكمه ومتشابهه. وناسخه. ومنسوخه. وعزائمه ورخصه. وسننه وآدابه.ونبه على أسباب النزول فيه.

ومن جلال شأن هذا الكتاب قال فيه محمد بن سيرين: "لو أصبت هذا الكتاب كان فيه العلم". فهو كما يظهر من محتوياته مصحف خاص وكتاب أصول من صنع علي.

والجامعة: كتاب طوله سبعون ذراعا من إملاء النبي وخط علي. فيه ما يحتاجه الناس من حلال وحرام وغيره، حتى ليصل في التفصيل إلى أرش الخدش. "التعويض عنه". وقد وصفها بذلك الباقر والصادق. وشهدها عندهما الثقات من أصحابهما منهم أبو بصير. قال الصادق: "أما والله عندنا ما لا نحتاج إلى أحد. والناس يحتاجون إلينا. إن عندنا الكتاب بإملاء رسول الله ﷺ وخط علي بيده. صحيفة طولها سبعون ذراعا. فيها كل حلال وحرام".

وقال: "إن الجامعة لم تدع لأحد كلاما. فيها الحلال والحرام. إن أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدهم من الحق إلا بعدا. وإن دين الله لا يصاب بالقياس".

قالوا: سميت الجامعة. والصحيفة. وكتاب علي. والصحيفة العتيقة.

كان أمير المؤمنين يخطب الناس فيقول: "والله ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا كتاب الله تعالى وهذه الصحيفة – وكانت معلقة بسيفه – أخذتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله".

ولقد دعا الخليفة أبو جعفر المنصور بكتاب علي هذا، فجاء به الإمام الصادق وقرأ فيه أن النساء ليس لهن من عقار الرجل، إذا توفي عنهن، شئ وقال أبو جعفر: هذا والله خط علي وإملاء رسول الله ﷺ.

وأبو جعفر من العلماء كما قال عنه مالك إمام المدينة، وكما أقر له الجاحظ كبير النقدة. فهو قد يقسم لأنه قرأ كتابة قبل ذلك لعلي، أو لأن لديه من العلم ما يعرفه أنها بإملاء النبي.

وكتاب الديات: وهو يغطي ما يسمى في الفقه المعاصر "المسئولية المدنية" عن الفعل الضار بالجسم. أورد محتوياته ابن سعد في كتابه المعروف بالجامع. وروى عنه أحمد بن نبل في المسند الأعظم. وذكره البخاري ومسلم. ورويا عنه.

مصحف فاطمة:

ومن التراث العلمي عند الشيعة ما يسمى مصحف فاطمة. حدثوا عن الصادق إذ سئل عنه "أن فاطمة مكثت بعد رسول الله خمسة وسبعين يوما وكان قد دخلها حزن على أبيها. وكان جبريل يأتيها فيحسن عزاءها ويطيب نفسها. ويخبرها بما يكون بعدها من ذريتها. وكان علي يكتب ذلك.فهذا مصحف فاطمة".

فليس هذا مصحفا بالمعنى الخاص بكتاب الله تعالى وإنما هو أحد المدونات.

التدوين

يوري "الصديق" في الأمالي أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله قال: "المؤمن من إذا مات ترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة سترا بينه وبين النار".

وفي حياة النبي أو حياة علي، اقتدت بعلي شيعته في التدوين. أو قل: هديت لتنفيذ أمر الرسول.

يقول ابن شهر أشوب:

"أول من صنف في الإسلام علي بن أبي طالب. ثم سلمان الفارسي ثم أبو ذر". والإثنان شيعة علي.

والسيوطي يروي أن عليا والحسن بن علي ممن أباحوا كتابة العلم بين الصحافة وفعلوها.

وألف أبو رافع مولى الرسول، وصاحب بيت مال علي بالكوفة، كتاب السنن والأحكام والقضايا. يقول موسى بن عبد الله بن الحسن: سأل أبي رجل عن التشهد فقال أبي: هات كتاب أبي رافع. فأخرجه فأملاه علينا.

أما علي بن أبي رافع فكتب كتابا في فنون الفقه على مذهب أهل البيت – أي آراء علي بن أبي طالب – وكانوا يعظمون شأن هذا الكتاب ويحملون شيعتهم عليه.

ومن الشيعة زيد الجهضمي. حارب مع علي وألف كتابا يحوي خطبه. ومنهم ربيعة بن سميع له كتاب في زكاة النعم. ومنهم عبد الله بن الحر الفارسي. له لمعة في الحديث جمعها في عهد رسول الله.

ومنهم الأصبغ بن نباتة صاحب علي. روى عنه عهده إلى الأشتر النخعي. ووصيته إلى ابنه محمد بن الحنفية.

ومنهم سليم بن قيس الهلالي صاحب أمير المؤمنين، له كتاب في الإمامة، وله مكانة عليا في المذهب من حيث الأصول.

وذات يوم كان الحكم بن عيينة عند الباقر يسأله فقال: يا بني قم فأحضر كتاب علي. فأحضر كتابا مدرجا عظيما ففتحه. وجعل ينظر حتى أخرج المسألة، وقال: هذا خط علي وإملاء رسول الله. وأقبل على الحكم وقال: "اذهب أنت وسلمة والمقداد حيث شئتم يمينا وشمالا، فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبريل".

ومن قبل الإمام الباقر وجدت عند الإمام زين العابدين الصحيفة المسماة الصحيفة الكاملة. وعن زين العابدين آلت إلى الشيعة رسائل عدة منها رسالة الحقوق. ورسالة إلى ابن شهاب الزهري(٥٦).

وكذلك ألف عمرو بن أبي المقدام جامعا في الفقه يرويه عن الإمام زين العابدين.

فلما صارت الإمامة للصادق حض على تدوين العلم أيا كان موضوعه، دينيا أو دنيويا، فقه عبادات أو معاملات أو علوما تطبيقية. وكان يقول: "القلب يتكل على الكتابة".

وكان يملي على تلاميذه. ويجيئهم بالدواة والقرطاس. ويقول: "اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا".

---

(٥٦) وفي العصر ذاته كان سعيد بن المسيب أول فقهاء المدينة السبعة يخاف أن يكتب عنه العلم. جاءه رجل فسأله عن شئ فأملاه عليه. ثم سأله عن رأيه فأجابه. وكانوا من كثرة إفتائه يسمونه سعيد بن المسيب الجرئ. فكتب الرجل. فقال جلساء سعيد: أتكتب يا أبا محمد؟ فقال سعيد للرجل ناولنيها. فناوله الصحيفة فخرقها.

ويلتمس سفيان الثوري إليه أن يحدثه بحديث خطبة الرسول بمسجد الخيف. ويرجوه ليأمر له بقرطاس ودواة ليثبته، فيأمر له، ثم يمليه: "بسم الله الرحمن الرحيم. خطبة رسول الله في مسجد الخيف. نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها. وبلغها من لم تبلغه. يا أيها الناس: ليبلغ الشاهد منكم الغائب. فرب حامل فقه ليس بفقيه. ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه".

وكتب عبد الله الحلبي كتابا عرضه على "الصادق" فصححه واستحسنه. وسنرى حفيده الإمام العسكري يعرض عليه يونس بن عبد الرحمن كتاب "يوم وليلة" فيصححه ويأمر بالعمل به.

ولما غاب "المهدي" في النصف الثاني من القرن الثالث أحوجت "الغيبة" إلى الرجوع للمدونات التي تزخر بها خزائن الشيعة. إذ لم يكن لديهم إمام ظاهر يسألونه. وكثرت الكتابة عندهم في القرن الرابع.

* * *

كان أول المستفيدين بالتدوين الباكر أولئك الذين يلوذون بالأئمة من أهل البيت فيتعلمون شفاها أو تحريرا، أي من فم لفم أو بالكتابة. فما تناقلته كتب الشيعة من الحديث، هو التراث النبوي – في صميمه – بلغ الشيعة في يسر طوع لعلمهم الازدهار. في حين لم يجمع أهل السنة هذا التراث إلا بعد أن انكب عليه علماؤهم قرنا ونصف قرن حتى حصلوا ما دونوه في المدونات الأولى. ثم ظلوا قرونا أخرى، يجوبون الفيافي والقفار في كل الأمصار، فتطابقت السنة – في مجموعها – عند هؤلاء وأولاء، إلا أمورا لا تتصل بأصل الدين، وخلافات في الفروع ليست بدعا في الأمة.

وربما كان اختلاف مذاهب أهل السنة فيما بينهم وبين أنفسهم أكثر ظهورا في بعض المسائل من خلافهم فيها مع فقهاء الشيعة.

وإذا لاحظنا أن من الرواة من قيل إنه روى عشرات الآلاف من الحديث عن الإمام، تجلت كفاية التراث الموثوق به عند الشيعة لحاجات الأمة.

وإذا لاحظنا توثيق الشافعي ومالك وأبي حنيفة ويحيى بن معين وأبي حاتم والذهبي للإمام الصادق – وهم واضعو شروط المحدثين وقواعد قبول الرواية وصحة السند – فمن الحق التقرير بأن حسبنا أن نقتصر على التفتيش عن رواة السنة عن الإمام الصادق.

والشيعة يكفيهم أن يصلوا بالحديث إلى الإمام. لا يطلبون إسنادا قبل الإمام جعفر. بل لا يطلبون إسنادا قبل الأئمة عموما، لأن الإمام بين أن يكون يروي عن الإمام الذي أوصى له، وبين أن يكون قرأ الحديث في كتب آبائه – إلى ذلك فإن ما يقوله سنة عندهم. فهو ممحص من كل وجه. فليست روايته للحديث مجرد شهادة به، بل هي إعلان لصحته.

وإذ كان ما رواه الصادق، رواية الباقر ورواية السجاد عن الحسين عن الحسن أو عن علي عن النبي، فهذا يصحح الحديث على كل منهج فالثلاثة الأخيرون من الصحابة المقدمين. يروون عن صاحب الرسالة، إذ يروي الحسن والحسين عن علي عنه.

ولا مرية كان منهج علي ومن تابعه في التدوين خيرا كبيرا للمسلمين، منع المساوئ المنسوبة إلى بعض الروايات، وأقفل الباب دون افتراء الزنادقة والوضاعين. فالسبق في التدوين فضيلة الشيعة. ولما أجمع العلماء بعد زمان طويل على الالتجاء إليه كانوا يسلمون بهذه الفضيلة – بالإجماع – لعلي وبنيه.

والسنة شارحة للكتاب العزيز. وهو مكتوب بإملاء صاحب الرسالة. فهي كمثله حقيقة بالكتابة.

إنما كان المحدثون من أهل السنة في القرون الأولى مضطرين لسماع لفظ الحديث من الأشياخ، أو عرضه عليهم، لأن السنن لم تكن مدونة. فكانت الرحلة إلى أقطار العالم لتلقي الحديث على العلماء وسيلتهم الأكيدة ولم يغير ذلك النظر انتشار التدوين في نهاية القرن الثاني ومنتصف الثالث، وكثرة الحديث المدون في المسانيد والمجاميع والصحاح التي ألفت بعد تلك الفترة،ومنها مسند أحمد بن حنبل (٢٤١) حوى ثلاثين ألفا دون المكرر. اختارها من ثلاثة أرباع مليون جمعها من أفواه العلماء من أقصى الأرض وأدناها، وحدث بها تلاميذه لينقلوها إلى الأجيال التالية.

وكان في أواخر أيامه يستوثق لنفسه فيروي للناس الحديث ويطلب المسند يقرأ فيه.

ثم جاءت أجيال تأخذ الحديث في الصحف الموثوق بصحة صدورها من صاحبها دون أن يرتحل إليه. وهذا ما أطلقوا عليه الوجادة – "لفظ مولد من "وجد" غير مسموع من العرب" يقولون: وجدنا بخط فلان. وفي القرن الرابع اعتبر ابن يونس الصفدي (٣٤٧) إماما حافظا للحديث وإن لم يرحل.

* * *

قلنا في كتابنا "أحمد بن حنبل إمام أهل السنة"[٥٧]: "والبعض من المحدثين لم يكونوا يروون عن الإمام جعفر الصادق لأنه يحدث بما قرأه في الكتب.. سئل أبو بكر بن عياش "وهو من أول أشياخ أحمد": "لماذا لم تسمع من جعفر وقد أدركته؟ قال: سألناه عما يحدث من الأحاديث أشئ سمعته؟ قال: لا. لكنها رواية رويناها عن آبائنا".." وعقبنا ذلك بقولنا: "والشافعي[٥٨] ويحيى بن معين[٥٩] متفقان على توثيقه. وهو شيخ مالك وليس بعد هؤلاء أدلة على جواز طريقة الإمام جعفر مع علمه الضخم في كل باب".

---

(٥٧) أحمد بن حنبل إمام أهل السنة – للمؤلف طبعة دار المعارف ص٢٠٦.

(٥٨) يذكر ابن النديم في الفهرست "وكان الشافعي شديدا في التشيع. ذكر له رجل يوما مسألة فأجاب فيها. فقال له: خالفت علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فقال له أثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولي إلى قوله".

وحضر الشافعي ذات يوم مجلسا لأحد الطالبيين فقال: "لا أتكلم في مجلس يحضر، أحدهم. هم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل".

(٥٩) يقول أحمد بن حنبل "كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس بحديث" وهو من آباء علوم الحديث. ومؤلفاته مراجع فيها – وهي علوم أوصلها الحاكم النيسابوري إلى اثنين وخمسين علما وأوصلها النووي إلى خمسة وستين.

وفي كتابنا "الإمام الشافعي"[٦٠] أجملنا الكلام عن موضع الإمام من الإسلام كله في كلمات: "الإمام جعفر.. يمثل صميم الإسلام.. يجتمع في نسبة النبي عليه الصلاة والسلام وأبو بكر وعلي. وهو إمام في الدين والفقه وبحر في العلوم الطبيعية".

وهذا البحر، والقطعة من الإسلام والمسلمين الثلاثة الأولين – بل الأربعة الأولين وفيهم أم المؤمنين خديجة – إمام يهتدي بهديه واجتهاده أئمة أهل السنة كافة. أما الشيعة الإمامية، فقول الإمام المعصوم يجري عندهم مجرى قول النبي من كونه حجة على العباد. ولقد توسع علماؤهم في اصطلاح السنة إلى ما يشمل "قول كل واحد من المعصومين وفعله وتقريره". فالأئمة المعصومون ليسوا، بهذه المثابة، من قبيل رواة السنن، بل هم منصوبون من الله تعالى، على لسان النبي، لتبليغ الأحكام عن طريق الإلهام،كالنبي بطريق الوحي إليه، وهو خاص به، أو عن طريق التلقي من المعصوم الذي يسبق.

أما فعل المعصوم فدليل على الإباحة. وأما تركه فدليل على عدم الوجوب.

وتآليف الإمام الصادق كثيرة. منها رسالة في شرائع الدين. ووصاياه للإمام الكاظم. ورسالة في الغنائم ووجوب الخمس، وتوحيد المفضل،وكتاب الأهليلجة، وكتاب مصباح الشريعة، وكتاب مفتاح الحقيقة، ورسالة إلى أصحابه، ورسالة إلى أصحاب الرأي والقياس. ورسالة لمحمد بن النعمان. وأخرى لعبد الله بن جندب. ورسالة في وجوه المعايش للعباد ووجوه إخراج الأموال. ورسالة في احتجاجه على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق، ورسالة حكم قصيرة.

والرسالتان المشار إليهما عملان أساسيان في الاقتصاد والاجتماع، يدلان على منهاج الإمام في صلاح الدنيا بالعمل والعبادة معا.

وثمة الرسائل العلمية المقترنة بجابر بن حيان.

---

(٦٠) الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول – طبعة دار المعارف ص١٣١.

أما كتاب الجفر المنسوب إلى الإمام الصادق – فيقول عنه ابن خلدون (٧٣٢- ٨٠٣) (١٣٣٢- ١٤٠٦): "واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هرون بن سعيد البجلي – وهو رأس الزيدية – كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص. وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم. وكان مكتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هرون البجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب عليه، لأن الجفر في اللغة هو الصغير. وصار هذا الاسم علما على الكتاب عندهم. وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق. وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه. وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل. ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه. فهم أهل الكرامات. وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصبح كما يقول".

والروايات متضافرة على أن الجفر غير "الجامعة". والبعض يقول: إن الجفر من مؤلفات علي أملاه عليه النبي(٦١).

---

(٦١) يقول ابن قتيبة عن الجفر في "أدب الكاتب" إن الإمام الصادق كتبه، وإن فيه كل ما يحتاجونه إلى يوم القيامة.

وإلى هذا الجفر، واحتوائه على كل شئ، يشير أبو العلاء المعري في شعره:

لقد عجبوا لآل البيت لما أتاهم علمهم في جلد جفر

فمرآة المنجم وهي صغرى تريه كل عامرة وقفر

وربما نسبوا من أجل ذلك إلى الإمام علوم كشف الغيب أو النجامة.

وهو جفران: الأبيض وهو وعاء من أدم فيه علوم الأنبياء والوصيين والذين مضوا من علماء بني إسرائيل. والأحمر فيه علم الحوادث والحروب.

* * *

كان تلاميذ الصادق مدونين كبارا،فلقد عاشوا في عصر نهضة علمية كبرى أعجب بها العالم، تبارت فيها يراعات المدونين. ودارت عجلات التدوين كهيئة ما دارت عجلات الطباعة عند ظهور المطبعة. بدأها عمر بن عبد العزيز على رأس القرن إذ أمر بتدوين السنة. وتابعها علماء الأمة من أهل السنة.

ومن بعد وفاة الصادق في عام ١٤٨ دون أربعة آلاف من التلاميذ في كل علومه،ومن جملتها ما يسمى "الأصول الأربعمائة". وهي أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف من فتاوى الصادق. وعليها مدار العلم والعمل من بعده. وخير ما جمع منها كتب أربعة هي مرجع الإمامية في أصولهم وفروعهم إلى اليوم. وهي "الكافي" "ومن لا يحضره الفقيه" "والتهذيب" "والاستبصار".

والكافي – للكليني أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني (٣٢٩) – أعظمها وأقومها، وأحسنها وأتقنها. فيه ١٦١٩٠ حديثا ألفه الكليني في عشرين سنة.

وأما كتاب من لا يحضره الفقيه، فوضعه ابن بابويه القمي – محمد بن علي بن موسى بن بابويه القمي[٦٢] الملقب "بالصدوق" – "دخل بغداد سنة ٣٥٠ ومات بالري سنة ٣٨١". وفيه ٥٩٦٣ حديثا. وهذا الكتاب أهم مؤلفاته مع أنه ألف ثلاثمائة كتاب.

وأما "التهذيب" "والاستبصار" فوضعهما بعد نحو قرن محمد بن الحسن بن علي الطوسي (٤٦٠) الملقب "شيخ الطائفة". وكان فقيها في مذهبي الشيعة وأهل السنة.

---

(٦٢) نسبة إلى مدينة قم في إيران وهي أقدم المدن التي بدأ فيها الشيعة الإمامية في إيران وقد نشأت على أيدي جماعة من الناجين منجيش ابن الأشعث (٨٣).

وفي التهذيب ١٣٥٩٠ حديثا وفي الاستبصار ٥٥١١ حديثا.

دخل الطوسي بغداد سنة ٤٠٨ واستقر بها في أيام الشيخ المفيد، محمد بن النعمان (٣٣٦- ٤١١) صاحب شرح عقائد الصدوق وأوائل المقالات. ونحو مائتي مؤلف.

وتلمذ الطوسي بعد موت الشيخ المفيد للشريف المرتضى فنجب في مدرسة الشرف، وفي "دار العلم" التي أنشأها، وكان يجري عليه اثنى عشر دينارا في الشهر طوال ملازمته له حتى وفاة المرتضى. وانتفع بكتب المرتضى والكتب التي حوتها مكتبته. فألف في كل علوم الإسلام. واجتهد الاجتهاد المطلق. فكان حجة في فقه الشيعة والسنة.

ومن أجل آثاره تدريسه في مجالسه، وأماليه "بالنجف الأشرف" في جوار مشهد أمير المؤمنين علي. وبهذا افتتح عصر العلم بالنجف الأشرف فصار صنوا للأزهر الأغر – الذي أقامته دولة من دول الشيعة – والمعهدان هما اللذان حفظا علوم الإسلام.

فالطوسي، والشريفان الرضي والمرتضي، والشيخان المفيد والصدوق، والكليني، قد وصلوا ما انقطع من التأليف منذ عصر الإمام الصادق حتى منتصف القرن الخامس، ليستمر التيار في التدفق.

والشريفان في مدرسة جدهما صنوان. أبوهما أبو أحمد الموسوي "نسبة إلى جده الإمام موسى الكاظم". وفيه قول ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة للشريف الرضي: كان أبوه أحمد جليل القدر عظيم المنزلة في دولة بني العباس وبني بويه. ولقب "بالطاهر ذي المناقب" ولقبه أبو نصر بن بويه "بالطاهر الأوحد". ولي نقابة الطالبيين عدة دفعات. كما ولي النظر في المظالم. وحج بالناس مرارا على الموسم.

عاش أبو أحمد طوال القرن الرابع (٣٠٤- ٤٠٠) وكان يستخلف على الحج ولديه "الرضي" "والمرتضى".

والشريف الرضي (٣٥٨- ٤٠٦) هو شاعر العربية الشهير. وجامع "نهج البلاغة" الأشهر، من خطب أمير المؤمنين علي. تولى نقابة "الطالبيين" في حياة أبيه ومن بعده. وتولى النيابة عن الخليفة العباسي.

فهذه ولاية ينفرد بها في التاريخ، تجمع بين نقابة الطالبيين وبين نيابة الخلافة السنية.

وللشريف الرضي تآليف عظيمة في تفسير القرآن منها:

١- تلخيص البيان في معجزات القرآن.

٢- حقائق التأويل ومتشابه التنزيل.

٣- معاني القرآن.

كذلك له:

٤- مجازات الآثار النبوية.

٥- خصائص الأئمة.

أما الشريف المرتضي (٤٣٦) فيقول عنه الثعالبي في "يتيمة الدهر" – وهما متعاصران – "انتهت الرياسة اليوم ببغداد إلى المرتضى في المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم. وله شعر نهاية في الحسن. ومؤلفاته كثيرة. منها أمالي المرتضى – الشافي – تنزيه الأنبياء – المسائل الموصلية الأولة – مسائل أهل الموصل الثانية – مسائل أهل الموصف الثالثة – المسائل الديلمية – المسائل الطرابلسية الأخيرة – المسائل الحلبية الأولة – المسائل الجرجانية – المسائل الصيداوية – وتآليف أخرى كبيرة في الفقه والقياس ورفضه. وقد شرح تلميذه الطوسي أكثر من مؤلف له".

ومن أعظم آثاره إنشاء "دار العلم" ببغداد ورصده الأموال عليها وإجراؤه العطاء على التلاميذ وإطعامهم وإسكانهم. وكان يتبع "دار العلم" هذه مكتبته التي تحوي أكثر من ثمانين ألف مجلد.

وحسبه أن يكون الطوسي من تلاميذه.

وفي آثار هذا السلف العظيم تتابع ركب العلماء والمؤلفين الفحول يخلدون فقه الإسلام.

مشيخة العلماء:

كان مع الكتب التي آلت عن علي ومعاصريه، مؤلفات، كبيرة أو صغيرة، وضعها من جاءوا بعده، وسير لهذا الثبت الضخم من شيعته من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. فهذا هو التراث التاريخي للشهداء وأشياع الشهداء. لا تكف الأمة عن ترديده،جهرة وخفية، يتصدرهم الصحابة العظماء، وإليك بعض الأسماء:

سلمان الفارسي "والذي يطلق عليه سلمان المحمدي". وأبو ذر "أصدق الناس لهجة". وعمار الذي "تقتله الفئة الباغية" وهو في التسعين يحارب مع علي. والعباس بن عبد المطلب. وأبو أيوب الأنصاري. والمقداد بن الأسود الكندي الذي قال لعلي يوم بيعة السقيفة: "إن أمرتني ضربت بسيفي وإن أمرتني كففت"، قال:"اكفف". وخزيمة ذو الشهادتين. وأبو التيهان. وعبد الله والفضل ابنا العباس، وبلال بن رباح. وهاشم بن عتبة المرقال: وأبان وخالد ابنا سعيد بن العاص. وأبي بن كعب سيد القراء. وأنس بن الحرث بن نبيه.وعثمان وسهل ابنا حنيف. وبريدة. وحذيفة. وقيس بن سعد بن عبادة رئيس الأنصار. وهند بن أبي هالة – أمه أم المؤمنين خديجة – وجعد بن هبيرة المخزومي – أمه أم هانئ بنت أبي طالب – وجابر بن عبد الله الأنصاري.

وسيجري في آثار الصحابة التابعون لهم وتابعو التابعين. فيضيفون إلى التراث العظيم آثار رجال عظماء منهم، من أشياع علي، الأحنف بن قيس. سويد بن غفلة. الحكم بن عيينة.

سالم بن أبي الجعد. علي بن أبي الجعد: السعيدان. ابن جبير وابن المسيب[٦٣]. يحيى بن نظير العدواني.

الخليل بن أحمد الفراهيدي مؤسس علم العروض. أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء مؤسس علم الصرف.

وفي مدرسة التابعين هذه برز أبو هاشم "عبد الله بن محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين". وأبو هاشم أول من تكلم في علم الكلام. ومن بعده نشأت مدرسة المعتزلة يتزعمها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد. وبأبي هاشم تبدأ مدرسة المتكلمين من الشيعة.

ومن جيل التابعين هشام بن محمد بن السائب الكلبي وأبو مخنف الأزدي المؤرخان.

ويتوالى موكب العلم العظيم من عهد علي. وتتعالى أصوات الدعاة العظماء للمذهب الشيعي، كالنابغة الجعدي: شهد صفين مع أمير المؤمنين، وله فيها أشعاره المشهورة، وكان معه عروة بن زيد الخيل، ولبيد بن ربيعة، وكعب بن زهير صاحب قصيدة "بانت سعاد". ومن بعدهم:الفرزدق، وكثير عزة من شعراء القرن الأول، ثم الكميت، وقيس بن ذريح، والسيد

---

(٦٣) سعيد بن جبير هو الشهيد الوحيد الذي قتل من الرعب قاتله! سأله الحجاج وهو يقدمه للقتل: أي قتلة تشاء؟ فأجابه:

"اختر أنت فالقصاص أمامك". ذلك أن القصاص قتل بقتل. فكان الحجاج بعد استشهاد سعيد يهب من نومه فزعا وهو يقول: مالي ولسعيد بن جبير!! ثم مات بعده بشهر. مات في رمضان وسعيد في شعبان سنة ٩٥.

ورفض ابن المسيب أن يبايع لولدي عبد الملك بن مروان – الوليد وسليمان – وتمسك برأيه فأخذوه ليقتلوه، ثم اكتفوا بضربه بالسياط وجروه من ثيابه وطافوا به.

ورفض أن يزوج بنته للوليد بن عبد الملك، وهو ولي عهد عبد الملك، وآثر أن يزوجها تلميذا فقيرا من تلاميذه.

الحميري، ودعبل الخزاعي، وأبو تمام، والبحتري، وديك الجن، والحسين بن الضحاك وابن الرومي، والأشجع السلمي(٦٤)...

وعلم أهل البيت علم كل الأمة. فأمير المؤمنين علي في قمة السند عند الجميع من سنة وشيعة. لكن الذين ينقلون عنه – من الشيعة أو أهل السنة – محل تفاوت.

فالشيعة لا يقبلون كلمة ممن حارب عليا أو ظلمه من الصحابة أو التابعين.

---

(٦٤) من الطبيعي أن يكون كثرة الشعراء شيعة. فالتشيع ضمير الجماعة وصوتها الصداح. والضمير الإسلامي كله، يثقله أو يعذبه، أو يهيج قرائحه، ما أصاب أهل البيت من ظلم الدول. ويخفف عنه ما يعقده حول أهل البيت من أمل. لهم وله.

وكلما أحس الشعب ظلما طلب الرجاء والاقتداء بأبناء النبي ﷺ – وبهذا انضاف إلى الثبت الحافل السابق ذكر: ابن هانئ الأندلسي، ومهيار الديلمي، وأبو فراس الحمداني، والناشئ الصغير، والناشئ الكبير، وكشاجم، وأبو بكر الخوارزمي، والبديع الهمذاني، والطغراني، والسري الرفا، وعمارة اليمني.

بل أصبح ثناء على الشاعر أن يقال "يترفض في شعره" أي يتشيع، وللمتنبي وأبي العلاء شعر شيعي.

وأما أشراف العلويين فمنهم الشريف الرضي والشريف المرتضى. وكان الشريف علي الجماني يقول: "أنا شاعر وأبي شاعر وجدي شاعر"ومنهم الشريف الشجري.

بل كان من الأمويين متشيعون: أبان بن سعيد بن العاص وخالد بن سعيد بن العاص وعمر بن عبد العزيز. وعبد الرحمن أخو مروان بن الحكم. ومروان بن محمد السروجي الذي يقول:

يا بني هاشم بن عبد مناف أنا منكمو بكل مكان

ولئن كنت من أمية إني لبرئ منهمو إلى الرحمن

وأبو الفرج الأصفهاني(٢٨٤– ٣٥٦) جده السابع مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان وأبو الفرج صاحب "الأغاني"ومقاتل الطالبيين.

ومن العباسيين شيعة: المأمون. والمعتضد. وأحمد بن الموفق. ومن الأيوبيينكان الأفضل بن صلاح الدين. ومن الفلاسفة متشيعون: الكندي فيلسوف العرب (٢٤٦) والفارابي (٣٣٩) وابن سينا (٤٢٨).

ومن الوزراء الممشهورين: أبو سلمة الخلال – قتله السفاح – ويعقوب بن داود. حبسه المهدي وأفرج عنه الرشيد – والفضل والحسن ابنا سهل – قتل المأمون الأول وأصهر إلى الثاني ليستل سخيمته. وبنو طاهر الخزاعي. ووزراء المأمون. وأبو دلف العجلي والصاحب بن عباد الخ.

وأهل السنة، مع اختلافهم من ناحية شروط الرواية والراوي، لا يقبل بعضهم ما لا يصل إليه بطريقته، ويتشكك بعضهم في بعض ما يرويه الشيعة لأمور تتعلق بالسند أو بالمتن أو براويه من الشيعة.

وفي إسناد الشيعة فحول – بكل المقاييس – في العدالة والنزاهة والعلم. تتردد أسماؤهم عالية في "كتب الحديث" والصحاح، التي يقوم عليها العلم عند أهل السنة – والحق أن "جوهر الحديث النبوي" واحد عند هؤلاء وأولاء، مع تعدد الطرق.

ومن هؤلاء:

– الحارث بن عبد الله الهمداني (٦٥) صاحب أمير المؤمنين علي وخاصته. حديثه في كتب السنن الأربعة: قال ابن سيرين "كان من أصحاب ابن مسعود خمسة يؤخذ عنهم أدركت أربعة منهم وفاتني الحارث، فلم أره. وكان يفضل عليهم وكان أحسنهم. ويختلف في هؤلاء أيهم أفضل: علقمة ومسروق وعبيدة".

– علقمة بن قيس النخعي (٦٢) عم الأسود وأخويه أبناء يزيد. كان من أولياء آل محمد. والشهرستاني يعده من الشيعة فهو قد شهد صفين مع أمير المؤمنين. واستشهد فيها أخوه أبي. وخضب علقمة سيفه من دماء الخوارج. ولم يزل عدوا لمعاوية حتى مات. ومكانة علقمة عند أهل السنة من المسلمات: كان عنده كل علم ابن مسعود.

وفي بيت علقمة نشأت مدرسة النخعيين. وفيها نجب إبراهيم بن يزيد واسطة العقدفي فقه العراق.

– ظالم بن عمرو قاضي البصرة لعلي "أبو الأسود الدؤلي" (٦٩). احتج به أصحاب الصحاح الستة. وهو واضع علم النحو. ومكان النحو من اللغة، ومكانة اللغة من القرآن والسنة وكل علوم الأمة، يضعان أبا الأسود في أعلى مكان.

– عبد الله بن شداد بن الهاد (٨١). أمه سلمى بنت عميس أخت أسماء أم عبد الله بنج عفر ومحمد بن أبي بكر ويحيى بن علي.

وهو أخو عمارة بن حمزة لأمه. وحمزة بطل أحد وشهيدها.

روى عن علي وأم المؤمنين عائشة وميمونة.

خرج مع القراء أيام ثورة ابن الأشعث فقتل يوم دجيل.

احتج بحديثه أصحاب الصحاح وسائر الأئمة أصحاب المسانيد.

– سليمان بن صرد الخزاعي (٦٥) كبير الشيعة في عصره. وبطل من أبطال صفين. يحتج به المحدثون. وحديثه عن رسول الله بلا واسطة، أو بواسطة الصحابي جبير بن مطعم، موجود في صحيحي البخاري ومسلم. وحديثه في غيرهما كثير.

وهو أمير التوابين الخارجين للثأر لدم الحسين. وكانوا أربعة آلاف ساروا إلى عبيد الله بن زياد وهو في سبعين ألفا، فتلاقوا في موضع يقال له "عين الوردة" حيث استشهد سليمان عن ثلاثة وتسعين عاما وهو يحارب جيش عبيد الله بن زياد.

أما عبيد الله بن زياد فقتله إبراهيم بن الأشتر النخعي بيده.

– صعصعة بن صوحان العبدي: أسلم في عهد النبي ولم يره. وهو من مشاهير خطباء العربية الذين خلدت بلاغتهم، فهو تلميذ في مدرسة أمير المؤمنين. شهد معه "الجمل" ومعه أخواه زيد وسيحان. وكانت الراية بيد سيحان يوم ذاك. فقتل، فأخذها زيد فقتل، فأخذها صعصعة وانتصر. ثم شهد صفين مع أمير المؤمنين.

روى عن علي وابن عباس. ونفاه المغيرة بن شعبة والي العراق بأمر معاوية، إلى الجزيرة في البحرين فمات – احتج به النسائي.

– عمرو بن وائلة – أبو الطفيل – (١١٠) كان صاحب راية المختار بن عبيد الثقفي. وهو آخر الصحابة موتا. قدم على معاوية يوما فقال له:

كيف وجدك علي خليلك أبي الحسن؟ "يقصد أمير المؤمنين عليا" فأجاب: كوجد أم موسى على موسى. وأشكو إلى الله التقصير.

قال معاوية: كنت فيمن حص عثمان؟ قال:لا ولكن فيمن حضره.

قال معاوية: فما منعك من نصره.

قال: فما منعك أنت من نصر عثمان؟ كنت في أهل الشام وكلهم تابع لك فيما تريد.

قال معاوية: أو ما ترى طلبي لدمه نصرة له؟

قال: إنك لكما قال أبو جعف:

لألفينك بعد الموت تطلبني وفي حياتي ما زودتني زادا

وحديثه في صحيح مسلم. روى عن رسول الله وعن علي وابن مسعود وحذيفة بن اليمان وحذيفة بن سعد وابن عباس وعمر ومعاذ.

– إبراهيم بن يزيد النخعي (٩٥) أبوه يزيد بن عمرو بن الأسود النخعي. وأخواله الأسود وإبراهيم وعبد الرحمن أبناء يزيد بن قيس.يؤلفون – مع علقمة بن قيس – مدرسة النخعيين. وابن قتيبة يعتبر إبراهيم من الشيعة.

وروايته في الصحيحين. وعنه يروي حماد بن أبي سليمان. وعن حماد يروي أبو حنيفة.

ومن فحول القرن الثاني كثيرون نختار منهم بعض الأسماء:

- عطية العوفي (١١١) كان أبوه من أصحاب علي. وعلي هو الذي أعطاه اسمه. ضربه الحجاج ٤٠٠ سوطا لامتناعه عن سب علي "وحد الجلد مائة!" له ذرية نبلاء من الشيعة. منهم الحسين بن الحسن بن عطية الذي ولي القضاء.

يحتج به أبو داود والترمذي.

- جابر بن يزيد الجعفي (١٢٧) قالوا إنه كان يؤمن بالرجعة. وأحاديثه في مسلم. وروى عنه النسائي والترمذي وأبو داود وأخذ عنه شعبة. ومن أجل قولهم عنه ووثاقته يروي ابن عبد الحكم عن الشافعي: "أن سفيان (ابن عيينة) قال لشعبة:لئن تكلمت في جابر لأتكلمن فيك".

- شعبة بن الحجاج (١٦٠) أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين.

- عبد الرزاق بن همام (٢١٠) شيخ أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وإسحق بن راهويه. سئل يحيى، وهو أستاذ الجرح والتعديل، عن الرواية عن عبد الرزاق مع تشيعه. قال: لو ارتد عن الإسلام ما تركنا حديثه.

وكان عبد الرزاق يتكلم في عثمان. وذكر أمامه معاوية مرة فقال: لا تقذروا مجالسنا بذكر ولد أبي سفيان[٦٥].

---

(٦٥) سأل الترمذي أحمد بن حنبل عن عائشة والزبير وطلحة فأجاب:"من أنا حتى أقول في أصحاب رسول الله ﷺ! كان بينهم شئ الله أعلم به". فأحمد لا يسيغ قدحا في الصحابة لورعه. وهم بأعمالهم وآرائهم أصل في أصوله.. حتى إنه ليبعث إلى يحيى بن معين يقول له: هو ذا تكثر الحديث عن عبد الله بن موسى العبسي وقد سمعته تناول معاوية. وقد أكثر الحديث عنه. فقال يحيى للرسول "اقرأ على أبي عبد الله أحمد بن حنبل

– الأعمش – سليمان بن مهران الأسدي الكوفي – (١٤٨). يحتج به أصحاب الصحاح الستة. ويروي عنه شعبة وجرير والسفيانان "الثوري إمام الكوفة وابن عيينة إمام المدينة". بعث إليه هشام بن عبد الملك ليكتب له مناقب عثمان ومساوئ علي. فأخذ القرطاس وأدخلها في فم شاة وقال للرسول: قل له: هذا جوابه. قال الرسول: لقد أقسم أن يقتلني إن لم آت بجوابك. فكتب: "أما بعد، فلو كان لعثمان مناقب أهل الأرض ما نفعتك ولو كان لعلي مساوئ أهل الأرض ما ضرتك. فعليك بخويصة نفسك والسلام".

– ابن لهيعة (١٧٤) قاضي مصر. يقول عنه سفيان "عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع".

– شريك بن عبد الله النخعي القاضي (١٧٧). كان يقول: "علي خير البشر فمن أبي فقد كفر". سأله الخليفة المهدي يوما:ماذا تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: ما قال فيه جداك العباس وعبد الله. قال: ما قالا؟ قال شريك: أما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة. وكان يرى المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل. وما احتاج هو إلى أحد حتى لحق بالله. وأما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين. وكان في حروبه سيفا منيعا وقائدا مطاعا. فلو كانت إمامته على جور كان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه وفقهه في أحكام الله. ولم يمض طويل وقت حتى عزل شريك(٦٦).

السلام وقل له: أنا وأنت سمعنا عبد الرزق" "بن همام"يتناول عثمان بن عفان. فاترك الحديث عنه. فإن عثمان أفضل من معاوية".

(٦٦) رما كان في هذه الفترة الحرجة ما قيل من أنه دخل يوما على المهدي. فقال المهدي: علي بالسيف والنطع. قال شريك: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال المهدي: رأيتك في منامي كأنك تطأ بساطي وأنت معرض عني. فقصصت رؤياي على من عبرها فقال لي: يظهر لك طاعته ويضمر معصيته. قال شريك: والله ما رؤياك برؤيا إبراهيم الخليل. ولا معبرك بيوسف عليه السلام. أفبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين؟ فاستحى المهدي وقال: اخرج عني وأبعده.

وكان الحقد على أمير المؤمنين علي غذاء يوميا على موائد بني العباس. لا تخلو منه واحدة حتى ولو كانت مائدة لخليفة يتشيع هو المأمون. أنبأه عمه إبراهيم بن المهدي – وكان شديد الانحراف عن علي – أنه رأى في المنام عليا فمشيا حتى جاءا قنطرة فتقدم لعبورها فأمسكه إبراهيم وقال:

- خالد بن مخلد القطواني (٢١٣) شيخ البخاري. قال عنه أبو داود صدوق ولكن يتشيع!

- هشيم بن بشير أول أشياخ أحمد بن حنبل المحدثين (١٦٣).

- عبد الله بن موسى العبسي (٢٦٣) من مشايخ البخاري.

- معروف الكرخي (٢٢٠) زعيم الصوفية.

وصف ابن حنبل معروفا لابنه عبد الله بن حنبل عندما سأله: هل عنده علم؟ فقال: كان عنده رأس الأمر كله. تقوى الله.

التلاميذ من الشيعة:

صنف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتابا جمع فيه رجال الصادق ورواة حديثه وأنهاهم إلى أربعة آلاف. وكتب من أجوبته أربعمائة مصنف.

أن تدعي هذا الأمر بامرأة "يقصد أمر الخلافة وفاطمة الزهراء وأن عليا يتقدم بزواجه منها" فما رأيت له بلاغة في الجواب.. ما زدني على أن قال: سلاما سلاما.

فنهر المأمون على ما افتضح من عقله الباطن في صورة حلم. قال:

لقد أجابك أبلغ الجواب. عرف أنك جاهل لا يجاب مثلك. قال الله تعالى: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما).

ولقد نهر أحمد بن دؤاد مرة أخرى إذ لم يتوقر في مجلس القضاء فقال له: "يا إبراهيم إذا نازعت في مجلس الحكم بحضرتنا امرءا فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتا ولا أشرت بيد. وليكن قصدك أمما. ورجك ساكنة. وكلامك معتدلا ووف مجالس الخليفة حقها من التوقير والتعظيم".

وكان مغنيا يعربد. نصبه أهله خليفة لمدة عامين في ثورة على المأمون. ثم عفا عنه المأمون بعد أن ضبطوه يحاول الفرار في ثياب امرأة.

وإنما أمكنه من ذلك انقطاعه المخلص للتعليم عامة وتعليم السنن والفقه والتفسير خاصة، للشيعة ولغيرهم.

كان الرواة من تلامذته ومن غيرهم – كما يقول اليعقوبي – يروون عنه فيقولون: "قال "العالم".

وكثيرا ما جلس في مجلس الإمام المخضرمون إلى جوار الجيل الجديد من المتفقهة، ومن الأولين قيس الماصر، وأبان بن تغلب. ومؤمن الطاق.

وكثيرا ما درب التلاميذ بين يديه ليصنعوا على عينيه: يفد على المدينة وافد من الشام فيغدو إلى المجلس يناقشهم في "وجوب تنصيب الإمام" فيتجارون في جداله حتى يسلم لهم. ثم يعلق الإمام الصادق على طريقتهم أو قدرتهم. فيقول لحمران بن أعين: "تجري الكلام على الأثر فتصيب". ثم يلتفت لهشام بن سالم فيقول له: "تريد الأثر ولا تعرفه". ويلتفت إلى الأحول "الطاقي" ويقول: "قياس رواغ تكسر باطلا بباطل. لكن باطلك أظهر".

ويقول لقيس الماصر "تتكلم وأقرب ما تكون إلى الخبر عن رسول الله. أنت والأحول قفازان حاذقان".. وأخيرا يقول لهشام بن الحكم: "يا هشام: لا تكاد تقع. تلوي رجليك. إذا هممت بالأرض طرت. مثلك يكلم الناس. فاتق الزلة..".

ولقد يلاحظ المرء من ذلك تعدد طرقهم وتفاوت علمهم ونفاذ بصر الإمام إلى خصائصهم، ودوره في تصويب وتدريب كل منهم. وهو لا يتركهم دون تشجيع: يشير إلى زرارة بن أعين وبريد العجلي وأبي بصير المرادي ومحمد بن مسلم فيقول: "لولا هؤلاء لانقطعت آثار النبوة واندرست". وكان في أسرة زرارة الحافظ المدققون يتصدرهم تلميذا الإمام، الحسن والحسين ابنا زرارة. والإمام يهب الأسرة جلال الذكري في التاريخ فيقول: "لولا أسرة زرارة ونظرائه لانقطعت أحاديث أبي".

وهو إذ يثني على أسرة زرارة، يشجع النظراء، وربما لا يتركهم الإمام دنون تضييف:

فالمستشرق رونلدسن يصور بعض مجالس الإمام مع تلاميذه فيقول ما تعريبه: "ومن الوصف الذي نقرؤه عن إكرام جعفر الصادق ضيوفه في بستانه الجميل في المدينة، واستقباله الناس على اختلاف مذاهبهم، يظهر لنا أنه كانت له مدرسة شبه سقراطية. وقد ساهم تلاميذه مساهمة عظمى في تقدم علمي الفقه والكلام. وصار إثنان من تلامذته وهما "أبو حنيفة ومالك" فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية. وأفتوا بالمدينة أن اليمين التي أعطيت في بيعة المنصور لا تعتبر، ما دامت أعطيت بالإكراه. ويروى أن تلميذا آخر من تلامذته وهو "واصل بن عطاء" رئيس المعتزلة جاء بنظريات في الجدل مما أدى إلى إخراجه من حلقة تدريس الإمام جعفر وكان "جابر بن حيان" الكيماوي الشهير من تلامذته أيضا".

إليك بعض الأسماء:

"أبان بن تغلب" (١٤١) تلميذ زين العابدين والباقر والصادق.

قال له الباقر: "اجلس في المسجد وأفت الناس. فأنا أحب أن يرى في شيعتي مثلك" وقال له الصادق: "ناظر أهل المدينة فأنا أحب أن يكون مثلك من رواتي ورجالي".

كان إذا دخل علي الصادق عانقه وأمر بوسادة تثني له، وأقبل عليه بكله، ولما مات قال: أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان.

روى عن الصادق ثلاثين ألف حديث. وهو – بهذه المثابة – شاهد على التعاقب والاستمرار والشمول في علم أهل البيت. يعرف الشيعة بأنهم "الذين إذا اختلف الناس أخذوا بقول علي وإذا اختلف الناس عن علي أخذوا بقول جعفر بن محمد" فهو القائل في جعفر بن محمد "ما سألته عن شئ إلا قال: قال رسول الله".

وكان إذا جلس بالمسجد تفوضت إليه الحلق. وأخليت له سارية النبي. فيجيئه الناس يسألونه فيجيئهم بمختلف الأقوال. ثم يذكر قول أهل البيت ويورد حججه. ومن أجل هذا المنهج في التدريس كان الصادق يوصي التلاميذ بأن يعبوا من منابعه، يقول لأبان بن عثمان: إيت أبان

فإنه سمع عني ثلاثين ألف حديث فاروها عنه. فهو لا يتردد في تفضيله حتى ليجعله طبقة بينه وبين سميه في الرواية عنه.

وقد احتج بحديثه مسلم بن الحجاج في صحيحه وأصحاب السنن الأربعة. وروى عنه سفيان بن عيينة شيخ الشافعي. وله كتب شتى منها كتاب في الأصول.

ثابت بن دينار (١٥٠) – أبو حمزة الثمالي – تلميذ الصادق والسدي المفسر. يقول فيه الرضا حفيد الصادق: أبو حمزة في زمانه كلقمان في زمانه.

استشهد بنوه الثلاثة حمزة ونوح ومنصور في خروجهم مع زيد بن علي – روى عنه الترمذي.

"مؤمن الطاق" – كما يسميه الشيعة – نسبة إلى "طاق المحامل" حيث كان متجره. أو "شيطان الطاق" كما يسميه فقهاء السنة:

هو محمد بن علي بن النعمان الأحول. ويقال إن أبا حنيفة هو الذي لقبه بشيطان الطاق لمناظرة جرت بين الخوارج وبينه أمام أبي حنيفة. والراجح أن خصومه سموه كذلك لعبقريته. أما الإمام الصادق فيناديه بعبارة بارعة يرضاها الجميع "يا طاقي" أو يقول: "صاحب الطاق".

كان مناظرا لا يشق له غبار. رآه تلميذ آخر يناظر، وأهل المدينة يضيقون بمناظرته حتى قطعوا آراءه، وهو لا ينكف عن الجدل. فنبهه على أن الإمام ينهاهم عن الكلام. فالتفت إليه وقال: أو أمرك أن تقول لي؟ قال: لا. ولكنه أمرني أن لا أكلم أحدا. قال: اذهب فأطعه فيما أمرك.

وسمع الصادق بالواقعة، من التلميذ،فتبسم. بل هو قال له: إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير. أما أنت إن قصورك لنتطير.

ويروى أنه ناظر زيد بن علي في إمامة الإمام الصادق.

كان أبو حنيفة يتهمه بالرجعة. وهو يتهم أبا حنيفة بالقول بالتناسخ. تلاقيا بالسوق يوما ومع صاحب الطاق ثوب يبيعه. قال أبو حنيفة أتبيعه إلى حين رجعة؟ قال: إن أعطيتني كفيلا أن لا تمسخ قردا.

ولما مات الإمام الصادق قال له أبو حنيفة: مات إمامك. فأجابه: لكن إمامك لا يموت إلا يوم القيامة. إمامك إبليس!

وله كتاب في مناظراته لأبي حنيفة.

أبان بن عثمان بن أحمر البجلي. يروي عن الصادق ثم عن الكاظم، وله مؤلفات شتى، وذكره ابن حبان في الثقات.

وهو على رأس الستة الذين أجمع الشيعة على تصحيح ما يصح عنهم والإقرار بالفقه لهم. وهم: أبان. وجميل بن دراج. وعبد الله بن مسكان. وعبد الله بن بكير. وحماد بن عيسى. وحماد بن عثمان.

هشام بن الحكم (١٧٩) نشأ بالكوفة ودخل بغداد للتجارة واستقر بها. ولزم الإمام الصادق ثم صار خصيصا بالإمام الكاظم يقول عنه ابن النديم: هو من جلة أصحاب جعفر. وهو من متكلمي الشيعة ممن فتقوا الكلام في "الإمامة".

عمل مدة من الزمان قيما بمجالس الكلام عند يحيى بن برمك وزير الرشيد.

وكان أول أمره من أصحاب جهم بن صفوان ثم انتقل إلى القول بالإمامة في شبابه. فكان الصادق يدعو له: "لا تزال مؤيدا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك".

ونفذ هشام إلى المعتزلة من خلال "النظام". وظل أثره قويا في غير المعتزلة حتى ظهر المذهب الأشعري.

وهشام هو الذي يقول: ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا إلى من ولاه الله من سمائه فعزلوه وإلى من عزله الله من سمائه فولوه "يقصد تبليغ علي سورة براءة بدلا من أبي بكر. وقول جبريل للرسول: لا يؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك".

كان إذا قصد إفحام معارضيه لم يثبت أمامه رجل. سمعه الرشيد في بعض مجالس يحيى بن برمك وكان يحضرها من وراء ستر فقال: "إن لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف".

ولما فتك الرشيد بالبرامكة طلب هشاما فاختفى. فأخذ به خلقا كثيرا ثم أطلقهم بعد أن مات هشام مستترا.

ولم تكن مجالس المناظرات خالية من الخطر. يسأل هشاما سائل ذات يوم: "أما علمت أن عليا نازع العباس "جد الرشيد" – إلى أبي بكر؟ فأيهما كان الظالم لصاحبه؟ – قال هشام فيما بعد: "قلت في نفسي: إن قلت العباس بلغ ذلك الرشيد، وإن قلت عليا ناقضت نفسي" – قال هشام: لم يكن فيهما ظالم. قال السائل أفيختصم اثنان.. وهما محقان!! قال هشام: نعم اختصم

الملكان إلى داود، وليس فيهما ظالم. وإنما أراد أن ينبهاه. كذلك اختصم هذان إلى أبي بكر ليعلماه ظلمه". فهو ينجو من المزالق، ويكرم الرجلين، ويفضل عليا على أبي بكر.

ومن وصية الإمام الصادق له قوله: "يا هشام من أراد الغني بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليفزع إلى الله في مسألته إن كان له عقل. فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع استغنى. ومن لم يقنع لم يدرك الغني أبدا.. يا هشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا.. العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه. إن الزرع ينبت في السهل.. من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه".

وكان يحذره من التشبيه والتجسيم، فلقد كانت تبلغه عنه زلات في هذا الشأن. ومع ذلك لا يكف عن تشجيعه. فيستعيده رواية ما وقع منه مع عمرو ابن عبيد زعيم المعتزلة. ويستحي هشام. فيقول له الإمام: "إذا أمرتكم بشئ فافعلوا". فيقول هشام:

"بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة. فعظم ذلك علي. فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة وأتيت المسجد، وإذا بحلقة عظيمة فيها عمرو.. والناس يسألونه.. فقعدت في آخر القوم على ركبتي. ثم قلت: أيها العالم. إني رجل غريب. تأذن لي في مسألة.. قلت: ألك عين؟ قال:نعم فقلت: ألك أنف؟.. ألك لسان؟.. ألك أذن؟ قال: نعم. قلت: ألك قلب؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح والحواس. قلت: أو ليس في هذه الجوارح غني عن القلب. قال: لا. قلت: لا بد من القلب وإلا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم. قال: نعم. فقلت: يا أبا مروان. والله تعالى لم يزل جوارحك حتى جعل لها إماما يصحح لها الصحيح وتتيقن به مما شكت فيه. ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم إماما يردون إليهم شكهم وحيرتهم. ويقيم لك إماما لجوارحك ترد إليه شكك وحيرتك؟.. فسكت. ثم التفت إلي وقال: أنت هشام بن الحكم"..

فضحك الإمام وقال: من علمك هذا؟ قال: شئ أخذته منك..

قال: "هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى".

وظاهر أن طريقته كانت طريقة الإمام في استعمال المحسوسات والاعتبار بها في الإثبات واستعمال العقل بنزاهة في الاستدلال. وسنعرض لها فيما بعد.

بلغت مؤلفات هشام سبعة عشر مؤلفا منها كتاب "الإمامة". كتاب الوصية والرد على من يطلبها. وكتاب الحكمين.

"جابر بن حيان" – أول من استحق في التاريخ لقب كيميائي، كما تسميه أوربة المعاصرة.وهو الذي يشير إليه الرازي (٢٤٠- ٣٢٠) – جالينوس العرب – فيقول: "أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان". والمؤرخون – إلا بعضا من غير المسلمين – متفقون على تلمذته للإمام. وعلى صلته أو تأثره به في العلم والعقيدة. وأكثرهم على أنه صار بعد موت الإمام من الشيعة الإسماعيلية. يقول في كتابه الحاصل: (ليس في العالم شئ إلا وفيه من جميع الأشياء. والله لقد وبخني سيدي "يقصد الإمام الصادق" على عملي فقال: والله يا جابر لولا أني أعلم أن هذا العلم لا يأخذه عنك إلا من يستأهله وأعلم علما يقينا أنه مثلك، لأمرتك بإبطال هذه الكتب من العلم).

وكانت كتب رياضة وكيمياء تسبق العصور بجدتها.. قيل إنه أخذ علمه عن خالد بن يزيد ثم أخذ عن الإمام جعفر.

وهو يشير إلى الإمام دائما بقوله: "سيدي" ويحلف به. ويعتبره مصدر الإلهام له.

يقول في مقدمة كتابه الأحجار: "وحق سيدي لولا أن هذه الكتب باسم سيدي – صلوات الله عليه – لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد".

ذكر له المستشرق كراوس Kraus ناشر كتبه في العصر الحديث أربعين مؤلفا. وأضاف ابن النديم في القرن الرابع للهجرة عشرين كتابا أخرى. وينقل ابن النديم قوله: "ألفت ثلاثمائة كتاب في الفلسفة وألفا وثلاثمائة رسالة في صنائع مجموعة، وآلات الحرب، ثم ألفت في الطب كتابا عظيما ثم ألفت كتبا صغارا وكبارا، وألفت في الطب نحو خمسمائة كتاب. ثم ألفت في المنطق على رأي أرسطاليس. ثم ألفت كتاب الزيج أيضا نحو ثلاثمائة ورقة. ثم ألفت كتابا في

الزهد والمواعظ. وألفت كتبا في العزايم كثيرة حسنة وألفت في الأشياء التي يعمل بخواصها كتبا كثيرة. ثم ألفت بعد ذلك نحو خمسمائة كتاب نقضا على الفلاسفة. ثم ألفت كتابا في الصنعة يعرف بكتب الملك. وكتابا يعرف بالرياض".

* * *

وتلاميذ الصادق، المشهورون، فيما عدا من سلف ذكرهم، من كبار أهل السنة أشياخ للفقهاء في جميع المذاهب منهم: سفيان بن عيينة. وسعيد بن سالم القداح. وإبراهيم بن محمد بن أبي يحيى. وعبد العزيز الدراوردي. وقد روى الشافعي عن كل هؤلاء. وجرير بن عبد الحميد، وإبراهيم بن طهمان، وعاصم بن عمر.. بن عمر بن الخطاب.. وأبو عاصم النبيل (٢١٢) شيخ أحمد بن حنبل. وأبو عاصم آخر تلاميذ الصادق وفاة، وقد روى عنه كتابا. والكسائي عالم اللغة، وعبد العزيز بن عبد الله االماجشون زميل مالك في الفتيا في موسم الحج، وعبد العزيز بن عمران.. بن عبد الرحمن بن عوف. وابن جريج إمام مكة. والفضيل بن عياض. والقاسم بن معن. وحفص بن غياث والثلاثة أصحاب أبي حنيفة، ومنصور بن المعتمر. ومسلم بن خالد الزنجي شيخ الشافعي بمكة. ويحيى بن سعيد القطان.

وإنما أحدثت السياسة الخلافات بين فقهاء السنة والشيعة فأنتجت وجوها لخلافات فقهية وحديثية. فوجدنا للشيعة رواة ليسوا من رواة الكتب التي يتداولها أهل السنة ومنها الصحاح الستة المشهورة. فالشيعة لا يقبلون أحاديث من حاربوا عليا أو أخطئوا في حقه.

ومن الناحية الأخرى وجدنا في بعض كتب الحديث لأهل السنة، أوصافا للرواة من الشيعة، تتضح منها جذور هذه الخلافات.

وإليك بعض أمثال:

كان الشعبي – شيخ المحدثين بالكوفة على رأس المائة الأولى – يكذب الحارث الهمداني، صاحب علي، فيسلط الله على الشعبي ثقات أثباتا من الرواة يستخفون به.

وأبان بن تغلب نجبة مدرسة السجاد والباقر والصادق. يقول فيه الحافظ السعدي: زائغ مجاهر. ويقول فيه الجوزجاني: زائغ مذموم المذهب. ويقول عنه الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال: "شيعي جلد. ولكنه صدوق. فلنأخذ صدقه وعليه بدعته".

وعلى هذا النحو تجد خالد بن مخلد القطواني (٢١٣)، وهو من مشايخ البخاري، يقول عنه ابن سعد إنه كان مفرطا في التشيع. ويقول عنه أبوداود: "صدوق" لكنه يتشيع.

وتجد تليد بن سليمان. يقول فيه أبو داود – تلميذ أحمد – رافضي يشتم أبا بكر وعمر. قلنا "صدقه" وعليه "بدعته". لكن ابن حنبل يأخذ عنه. وحسب الرجل شهادة ابن حنبل.

وجعفر بن سليمان يقول فيه ابن عدي: "أرجو أنه لا بأس به"، في حين أن أحمد بن حنبل عندما يقال له إن سليمان بن حرب يقول لا تكتبوا حديث جعفر بن سليمان، يرد أحمد: "لم يكن ينهى عنه إنما كان جعفر يتشيع" فيبين سبب ظلم سليمان له.

ولقد تجد الراوية يقول بالرجعة، فيضعفه يحيى بن معين، أستاذ الجرح والتعديل وزميل أحمد بن حنبل، لكنك تجد عبد الرازق بن همام يقول بالرجعة ومع ذلك يروي عنه الأعمش وسفيان وشعبة وابن حنبل ويحيى نفسه وسفيان بن عيينة شيخ المحدثين بمكة وأستاذ الشافعي. وأحمد بن حنبل صاحب المسند الأعظم.

أو تجد زبيد بن الحارث، يقول فيه الجوزجاني: "كان ممن لا يحمد الناس مذاهبهم". ويضيف: "احتملهم الناس لصدق ألسنتهم في الحديث".

لذلك يحتج به أصحاب الصحاح وأرباب السنن، وكمثلهم الشعبي وإبراهيم بن يزيد النخعي.

والحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب يقول في الجوزجاني: "وأما الجوزجاني فلا عبرة بحطه على الكوفيين فالتشيع في عرف الأقدمين هو.. أن عليا كان مصيبا في حروبه وأن

مخالفه مخطئ. مع عدم تقديم الشيخين. وربما اعتقد بعضهم أن عليا أفضل الخلق بعد رسول الله. وإذا كان معتقد ذلك ورعا دينا، صادقا، مجتهدا، فلا ترد روايته".

وهذا هو الذي جعل روايات الرواة الذين ذكرناهم، وأمثالهم، تتردد في كتب الصحاح والسنن.

هكذا كان انقسام الأمة نقمة على العلم. وكان الوقوف على أبواب السلاطين نقمة أخرى. والوسائل طيعة، من ترهيب وترغيب وبث للعيون والأرصاد، وبخاصة على الشيعة. مما أورث هؤلاء العمل بالتقية. والتقية أو الحذر يوجبان الانطواء أو التباعد.

وفي عصر الخلافة العباسية كان "مذهب السلطان" مذهب أبي حنيفة في في المشرق، ومذهب مالك بإفريقية في المغرب، في حين كانت المعتزلة تتزعم التجديد وتلتصق بالخلفاء. وكان – الشافعية – كإمامهم – أساتيذ جدل، وكمثلهم كان أهل الظاهر أتباع داود، وقد بدأ شافعيا. وأما المحدثون فقد كانوا يمثلون السلف والدفاع عن السنة، ومثلهم المالكية.

وكانت خلافات المتفقهة سمة العصر.

وفي القرن الرابع الهجري جاب المقدسي (٣٨٠) العالم الإسلامي، فذكر أن أهل الأندلس كانوا إذا وقعوا على معتزلي أو شيعي قتلوه، ثم وصف تناحر الوسط العلمي في عصره بعبارات حادة، قال: "قلما رأيت في بغداد من فقهاء أبي حنيفة إلا رأيت أربعا: الرياسة، مع لباقة فيها، والحفظ، والخشية، والورع. وفي أصحاب مالك أربعا: النقل والبلادة والديانة والسنة. وفي أصحاب الشافعي: النظر والشغب والمروءة والحمق – وفي أصحاب داود: الكبر والحدة والكلام واليسار: وفي الشيعة: البغضة، والفتنة، واليسار، والصيت".

أما الصفتان الأوليان اللتان يصف بهما الشيعة فمردهما إلى التمسك بمقدساتهم وعلومهم في مواجهة المتعصبين الذين لا يكفون عن التناؤش معهم من قريب أو بعيد. وأما الصيت، فأي صيت في الأمة أبعد من صيت أهل البيت أو محبيهم! وأما اليسار فمرده إلى فتوح الله عليهم، بالعلم الذي طالما علمهم الإمام جعفر الصادق، في "منهج كامل في الاقتصاد"، سنعرض له فيما بعد.

obeikandl.com

الفصل الثاني

الدرس الكبير

"لكل نبي وصي ووارث. وإن وصيي ووارثي علي بن أبي طالب"

"حديث شريف"

أحدث انقسام الأمة بفعل بني أمية أثره في الفقه. وليس كلام بعض المسلمين في أفراد من الصحابة إلا أثر من آثار هذا الانقسام. ومن الطبيعي ألا تمتنع الألسنة عما لم تمتنع عنه الأسلحة. وأن تستمر معارك الكلام وإن توقفت رحى الحرب.

شق أهل الشام عصا الطاعة لأمير المؤمنين منذ استخلف. وانتهت يوم "وقعة الجمل" فتنة عمياء فيومئذ قال محمد بن الحنفية وهو يحمل الراية:هذه والله الفتنة الكاملة العمياء. وناداه أمير المؤمنين: "هل عندك في جيش، مقدمه أبوك، شئ!".

ونفر البطل للقاء أهل الشام في صفين. ورفع جيش معاوية المصاحف. ثم كانت خدعة التحكيم وخروج الخوارج وهزيمتهم. لكنهم ظلوا يمثلون التعصب العميق لفكر لم يتمرس بالسياسة وتبعات القيادة وحقن الدماء. فلاموا عليا لقبوله التحكيم مع معاوية(٦٧). ومنذئذ لم يوالوا عليا ولا من والاه – لكن الدولة لم تؤل إليهم، ولهذا قل أثرهم في الاتجاه العام للأمة.

---

(٦٧) كفروا عليا لقبوله التحكيم ورأوا أن الخلافة لا بد لها من بيعة الجمهور. وأنها لا تنحصر في بيت معين وبرئوا من علي وعثمان ومعاوية. الأول لقبوله التحكيم والثاني لمخالفة سياسة الشيخين أبي بكر وعمر والثالث لاستيلائه على الأمر بالقوة.. يأخذون بظاهر العبارة من القرآن. ولا يأخذون من السنة إلا ما يرويه من يتولونهم. وعمدتهم في ذلك الأحاديث المروية على عهد الشيخين. وكل من تعدى حدود الله عندهم

وإنما الذي أحدث أثره العظيم في الأمة خلاف معاوية. إذ ولي الحكم وألزم ولاته بالطعن في علي. والتنكيل بمن والاه. ونظرت العامة إلى مصلحتها العاجلة في توقي الشرور من السلطة. ونظر المتفقهون – ومعهم جمهور الأمة – بفقه طابعه الشمول، أنزل الخلفاء الراشدين الأربعة منازلهم. وسبحت ثلة منهم بزوارق السلطة خوفا أو طمعا. ورأى البعض إرجاء إبداء الآراء. وبطش بنو أمية جبارين. فقل عدد الشيعة أو تواري بعضهم تقية، كما قل اتصال أهل البيت بالعامة وفقهاء الجمهوري. واستمسك الشيعة بفقههم وروايات الأحاديث من أئمتهم أو عن أئمتهم.

ولما قتل معاوية حجر بن عدي، لغضب الصحابي الجليل من القدح في أهل البيت، كان معاوية يقتل استقلال الآراء عن السلطة. ثم كانت البطشة الكبرى بأهل البيت في كربلاء (سنة ٦١) متابعة من يزيد لأبيه في حماية "العرش" الأموي بغير حساب. ثم صفت وقعة الحرة (٦٣) جيل الصحابة من المهاجرين والأنصار.

وفصلت حروب المختار بن عبيد بين أشياع السلطة وبين علي من جديد – ولم تكن حرب ابن الزبير مع أهل الكوفة، ولا حربهم لبني مروان، إلا أسبابا جديدة لانكماش الشيعة. والحجاج – والي عبد الملك بن مروان – مصلت سيفه. وكمثله الولاة بعده.

في أخريات هذا العهد كان زين العابدين قد ملأ الأفق بورعه وعلمه وسخائه،حتى مات. وبزغ نجم الباقر في سماء المدينة، وأعقبه الصادق، ليبدأ إمامة مهد لها أبوه. ومكن لهم أن ينشروا العلم، الانصراف عن السياسة أو المطالبة بالحكم، فأشرق الفجر الجديد.

لكن خروج زيد بن علي، ثم هجوم الخوارج على المدينة، ثم هزيمتهم، ثم هزيمة بني مروان أمام العباسيين، ثم فتكات العباسيين بأبناء علي، وقد تضاءلت بالنسبة لها صعقات الأمويين، كل أولئك زاد القطيعة بين أصحاب السلطة وبين أهل البيت، والانطواء من الشيعة على أنفسهم، والانفصال بين معظم الرواة من أهل السنة وبينهم:

فاسق، ولذلك عدوا أشياع معاوية والذين لم يتبرءوا من علي وعثمان – وهؤلاء جمهور الأمة – خارجين على الإسلام واستحلوا ما لهم وقتلهم، وبهذا نفر الناس منهم.

فرأينا عامر بن شراحبيل الشعبي (١٠٤) شيخ المحدثين في العراق وقاضي بني مروان يقول: "ماذا لقينا من آل علي إذا أحببناهم قتلنا وإن عاديناهم دخلنا النار".

ومن كثرة ما عمل للخلفاء، صار دربا على معاملة الأمراء: سأله الحجاج: كم عطاءك قال: ألفين. فاستدرك الحجاج وقال: ويحك كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: لم لحنت؟ قال: لما لحن الأمير لحنت. ولما أعرب أعربت.

وسمعنا الحسن البصري (١١٠) الجسور، إذ يروي عن علي، يقول: "قال أبو زينب" – ولما سأله ابن عياش: "ما هذا الذي يقال عنك إنك قلته في علي؟" أجاب: "يا ابن أخي. احقن دمي من هؤلاء الجبابرة. لولا ذلك لسالت بي أعشب".

ولما تقطعت بين الشيعة وغيرهم الأسباب، اضمحلت، أو قلت، المشاركة العلمية. وصار هنالك عالمان فقيهان متقاطعان.

* * *

ولم يكن غريبا في هذه القطعية أن تقل رواية أهل السنة عن أهل البيت. أو أن نرى مالك بن أنس – في المدينة ذاتها – يسأل عن سبب ندرة الرواية منه، عن علي وابن عباس فيجيب: لم يكونا ببلدي (يقصد أن عليا كان بالكوفة وابن عباس بمكة). أو نراه يقتصر، فيما يرويه عن الإمام الصادق، على أحاديث قليلة جدا في الموطأ، وفيه نحو من ألف حديث[٦٨].

---

(٦٨) من أدلة وحدة العلم أو التقارب فيه حديث، من هذه القلة، هو حديث اليمين مع الشاهد. وهي مسألة أريق فيها مداد كثير لفقهاء أهل السنة. جاء في الموطأ رواية محمد بن الحسن: "أخبرنا مالك أخبرنا جعفر بن محمد عن أبيه أن النبي ﷺ قضى باليمين مع الشاهد".

قال محمد بن الحسن – ذكر ذلك ابن أبي ذئب عن ابن شهاب قال: سألته عن اليمين مع الشاهد فقال: بدعة. وأول من قضى فيها معاوية. وابن شهاب أعلم عند أهل المدينة بالحديث من غير.

وكذلك ذكر ابن جريج عن عطاء بن أب رباح قال: "كان القضاء الأول لا يقبل إلا شاهدين وأول من قضى باليمين مع الشاهد عبد الملك بن مروان..".

ولما قال البخاري بعد أكثر من مائة عام من قيام الدولة العباسية – عن صحيحه "ما وضعت فيه إلا الصحيح. وما تركت من الصحاح أكثر" كان في هذا القول دلالة على الاحتياط العلمي، وعلى أن أحاديث صحاحا قد أغفلت. وأنها أكثر مما تضمنه كتابه من الصحيح. ولعله بهذا يقصد، فيما يقصد، أحاديث "علي" وأهل البيت فيما تركه من صحاح. فهو لم يرو أحاديث أهل البيت، في حين احتج بها الجميع وورد الكثير منها في سائر الصحاح والمسانيد[٦٩].

وهذا الحديث وارد في سنن الترمذي وابن ماجه ورواه عن ابن عباس مسلم وأبو داود والنسائي ومسند أحمد.والصحاح الخمسة تذكره موصولا – وتعمل به المدينة ومكة،وقد ذكر ابن الجوزي أن رواة الحديث يزيدون عن عشرين صحابيا.

والمذاهب الثلاثة تعمل به. وأبو حنيفة لا يعمل به.

والشافعي يرى زين العابدين أعلم أهل المدينة،يقول في دفاعه العلمي المجيد عن حجية خبر الواحد في الرسالة: "وفي تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفي بعض هذا منها... ولم يزل سبيل سلفنا والقرون بعدهم إلى من شاهدنا هذا السبيل.. ووجدنا علي بن حسين "يقصد زين العابدين" يقول: أخبرنا عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أن النبي قال: "لا يرث المسلم الكافر" فثبتها سنة ويثبتها الناس بخبر، سنة.

ووجدنا كذلك محمد بن علي بن حسين "يقصد الباقر" يخبر عن جابر عن النبي وعن عبد الله بن أبي رافع عن أبي هريرة فيثبت كل ذلك سنة.

ووجدنا محمد بن جبير بن مطعم. ونافع بن جبير بن مطعم، ويزيد بن طلحة بن ركانة، ومحمد بن طلحة بن ركانة، ونافع بن هجير بن عبد يزيد، وأبا سلمة بن عبد الرحمن، وحميد بن عبد الرحمن، وطلحة بن عبد الله بن عوف، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف وخارجة بن زيد بن ثابت، وعبد الرحمن بن كعب بن مالك، وعبد الله بن أبي قتادة، وسليمان بن يسار، وعطاء بن يسار، وغيرهم من محدثي أهل المدينة، كلهم يقول حدثني فلان لرجل من أصحاب النبي عن النبي أو من التابعين عن رجل من أصحاب النبي، فيثبت ذلك سنة".

وإنك لتلاحظ أن الشافعي يستند إلى رواية زين العابدين والباقر فيضع زين العابدين في مقام خاص به. هو الأول. ويضع ابنه الباقر في المقام التالي لأبيه. ثم يجئ بالأبناء العلماء، للصحابة العظماء، وراء هذين المقامين، ويجئ بهم مجموعين، ثم يجئ بفضلاء التابعين بعد هؤلاء جماعات.

(٦٩) روى أحمد بن حنبل أحاديث أهل البيت في مسنده الأعظم. وروى كذلك مسلم بن الحجاج (٢٦١) وسليمان بن الأشعث السجستاني "أبو داود – ٢٧٥" ومحمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩) ومحمد بن يزيد بن ماجه (٢٧٩) والنسائي أحمد بن علي بن شعيب (٣٠٣) بقية أصحاب الصحاح كما يسميها أهل السنة.

والنسائي من شهداء الوفاء لعلي: خرج من مصر إلى الشام فسألوه عن فضائل معاوية – إذ كان قد ألف في فضائل علي – وقيل إنه أجاب: ألا ترضى رأسا برأس حتى تفضل؟ أو قال: لا أعلم له فضيلة. فما زالوا

ومع أن الحرب الكلامية والافتراءات الموجهة للرواة كانت ضروسا فقد وثق الأئمة الفقهاء والمحدثون – أعظم التوثيق – الإمام جعفر الصادق. وشرفوا بالرواية عنه. ووقفت المذاهب الأربعة موقف الإجلال له. فكان ذلك إعلانا من أهل العلم أن أئمة أهل البيت للجميع لا للشيعة وحدهم. وأن الحديث متى ثبت عنهم هو حديث حدهم ﷺ.

وكان يوسف بن أبي يوسف يروي عن أبيه عن أبي حنيفة عن "جعفر بن محمد" عن سعيد بن جبير عن ابن عمر حديث رسول الله. وفي الوقت ذاته يروي عن أبيه عن أبي حنيفة عن إسحاق بن ثابت عن أبيه عن علي بن الحسين حديث رسول الله، مع أن علي بن الحسين "زين العابدين" لم ير جده – واللقاء من شروط البخاري – ويروي يوسف عن أبيه عنابي حنيفة عن "جعفر بن محمد" حديث رسول الله – مع أن الصادق حفيد زين العابدين – فهذا أبو حنيفة ومن روى عنهم – كمثل مالك وغيره – يروون عن أئمة أهل البيت، ويأخذون بحديثهم عن رسول الله، مع أنهم لم يلقوه أو لم يكن بينهم وبين الرسول صحابي.

والكتب التي يقوم عليها الفقه الشيعي تروي كلها عن الإمام جعفر الصادق أو الأئمة المعصومين. يستوي في ذلك الكتب الأربعة الشهيرة وغيرها.

في هذه الأضواء نستطيع أن نفهم انقسام العلم بانقسام مصادره. وانحسار هذا البحر من بحاره عن الجمهور، باقتصاره على الشيعة. ولا جرم كانت فيه كفاية لإنتاج دق الفقه وجله، بما فيه من غزارة، وباعتماده على النقل والعقل معا. وبإقبال الشيعة – شأن الأقليات جميعها – على تعميق علومها،وتقوية شعوبها. وساعدهم انفتاح الفكر واجتهاد الرأي في تطهير وسطهم العلمي والاجتماعي ممن ينتسبون، أو ينسبهم الخصوم، إليهم، من الغلاة في علي بن أبي طالب(٧٠). ثم تمييز علمهم من علم المخالفين الذين يتولون غير الإمام جعفر وغير أبيه كالزيدية(٧١).

يدفعونه في خصيته حتى أخرجوه من المسجد وقد اشرف على الموت فقال: احملوني إلى مكة فحمل إليها حيث توفي.

(٧٠) كان وجود غلاة في الشيعة فرصة للمغرضين، إذ نسبوا عمل الغلاة إلى الشيعة كلهم. فأحدثوا بذلك أثرا كاذبا في أفهام الآخرين، بدعاوى هم منها براء، مثل أن الإمام هو الله ظهورا واتحادا. وهو غلو يبلغ الكفر. وأكثر المنسوبين غلوا أتباع ابن سبأ وأبي الخطاب الأسدي الذين يؤلهون عليا والأئمة. وهؤلاء ليسوا مسلمين.

ولقد حرق علي بالنار من ألهوه، وتبرأ الصادق من أبي الخطاب الأسدي. وقتله جند أبي جعفر وكان ابن سبأ يهوديا من صنعاء أسلم وانطلق إلى الحجاز والبصرة والشام ومصر. والمؤرخون الأولون كالطبري (٣١٠) والمؤرخان الشيعيان أبو خلف القمي (٣٠١) والنوبختي (٣١٠) يؤكدون وجوده، في حين يشكك في وجوده آخرون ممن جاءوا بعد ذلك.

كان ابن سبأ يحرض أبناء العشائر ضد عثمان. قائلا إن لعلي مكانا فوق الصحابة بل فوق سائر الخلق. ولما قتل علي قال إنه سيرجع. وقد نفاه علي إلى المدائن إذ كان يقول له: "أنت أنت" ثم صار يقول: "عجبا من الذين يكذبون رجوع محمد في حين يقولون إن عيسى يرجع" ويقول: إن محمد خاتم النبيين وعليا خاتم الأوصياء. ويقول: إن عثمان ولي الخلافة بغير حق.

وقال البعض: إن ابن سبأ دفع أبا ذر ليقول ما قال لعثمان.ولا شك أن ابن سبأ أقل من أن يرتفع إلى مستوى تحريض أبي ذر. وأن نسبة آثار ضخمة حدا لأراجيف بن سبأ في محيط صغير جدا وزمان قصير جدا – ليس إلا وجه من تعليق الأوزار، التي ارتكبتها أجيال أفرخت فيها الفتن، على عاتق رجل لا قيمة له. والكثيرون من المؤرخين على أن ابن سبأ لم يلق أبا ذر.

وتعليق الأوزار هروب. وهو عيب قديم في المجتمعات التي تفقد صدق الرؤية، فتبرئ نفسها – ظلما – من عيوبها،فتلقيها على الآخرين. وهو أيا كانت الحال غلو في تضخيم شأن ابن سبأ وأشباهه لتبغيض الشيعة إلى الآخرين. ولقد طالما أحدث هذا التبغيض من قوم لا يعلمون الحقائق آثار، في نفس قوم مخلصين.. وفي ظلمات هذه الجهالات يتوارث المسلمون فرقة يفرضها عليهم من يفيدون لأنفسهم ومن يجهلون.

(٧١) الزيدية: أتباع زيد بن علي زين العابدين – أخي الباقر – قالوا أنه فوض في الإمامة قبل أن يستشهد إلى محمد بن عبد الله بن الحسن "النفس الزكية".

وكان زيد يجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل لمصلحة يراها المسلمون، لهذا أجاز خلافة أبي بكر وعمر. فرفضه شيعة العراق فسموا رافضة. ومنذئذ أطلق على الشيعة الإمامية اسم الرافضة. وقيل: سموا الرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر. والأول رأي الشهرستاني والأخير رأي أبي الحسن الأشعري. والشهرستاني من الشيعة والأشعري من أهل السنة.

وزيد يقول: إن الأدلة اقتضت تعيين علي إماما "بالوصف" لا بالشخص. ويقول: إن الشيوخ يختارون "الأفضل" من أولاد علي من فاطمة، عموما "بالاجتهاد".

ومن شروط الزيدية أن يجتهد أئمتهم. ولذلك كثر فيهم الأئمة المجتهدون. ومن شروطهم أن يخرج الإمام داعيا لنفسه. وعلى هذا الشرط جادل الباقر أخاه زيدا بقوله: "على قضية مذهبك والدك ليس بإمام فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج". ومن الزيدية اليعقوبية يقولون بولاية أبي بكر وعمر ويتبرءون ممن يبرأ منهما وينكرون رجعة الأموات. وبقية الزيدية تتوقف في أمر الرجعة لا يقولون بها ولا ينكرونها.

وظهرت في المذهب الزيدي مذاهب منها الهادوي والقاسمي والناصري والهاروني التي تخالف الأصل في فروع يسيرة وتسير عليه في جملة الفروع وتلتقي بمذاهب أهل السنة، وبخاصة المذهب الهادوي الذي أسسه إمام اليمن الإمام الهادي "يحيى بن الحسن بن إبراهيم بن القاسم" صاحب صعدة (٢٨٠– ٢٨٩) وكان أئمة

أو من علم الذين يتولون غيره وغير أبيه وجده[٧٢] كالكيسانية.

يقول الشيخ المفيد في غلاة الشيعة: "وهم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام إلى الألوهية والنبوة، ووصفوهم في الدين والدنيا بما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد. فهم ضلال وكفار".

والإمامية لا يجيزون القدح في الصحابة. فإذا وجد قادحون منهم فآراؤهم فردية، في أفراد، من الصحابة، يبديها المتطرفون. وأشباههم موجودون في أهل السنة، ممن قدحوا في بطل الإسلام "علي"، وريحانتي النبي "الحسن" و"الحسين".

المذهب الهادوي من عظم اتفاقهم مع المذهب الحنفي يرون الأخذ بالمذهب الحنفي إذا لم يجدوا عن الإمام الهادي نصا في المسألة. بل يذهبون إلى أبعد من ذلك فيأخذون بأرجح ما في المذاهب الأخرى.

والزيدية ترى أن كل من دعا لنفسه من أولاد علي من فاطمة الزهراء، وكان مستكمل الصفات وجب اتباعه.

وقد كتب لهم النجاح في اليمن وطبرستان إلى الجنوب من بحر قزوين. والعرب تسمى بحر قزوين بحر طبرستان. وقد ملك طبرستان الحسن بن زيد.. بن الحسن بن علي سنة ٢٥٠ حتى سنة ٢٧٠. وكانت ثورة ابن طباطبا في بغداد في أيام المأمون زيدية.

(٧٢) الكيسانية يقولون بإمامة محمد بن الحنفية بعد وفاة أبيه. وإن الحسن والحسين إنما خرجا بإذنه. ومن الكيسانية أشياع المختار بن عبيد الله الثقفي (٦٧).

ومنهم الهاشمية. الذين يقولون: إن محمدا أفضى إلى ابنه أبي هاشم بالأسرار التي أفضى إليه بها أبوه. ولما مات أبو هاشم انقسمت فرقته فرقا. واحدة تقول إنه أوصى لأخيه علي. وإن الوصية لا تخرج عنهم حتى "يرجع" محمد بن الحنفية. وواحدة تنقسم إلى فرق. منها فرقة تقول: إنه أوصى إلى معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب "وقد قتله أبو مسلم الخراساني" وفرقة تقول: إنه أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. وهاتان فرقتان تخرجان الإمامة إلى غير أبناء علي. وتفسران أهل البيت تفسيرا يسع غير أبناء علي.

والقدح "معصية" لا تخرج من الإسلام.

ولا يعتبر معصية اجتهاد "مجتهد" تأول فأخطأ. وقد نظر علماء السنة هذا النظر الأخير إلى خلافات المعتركين من الصحابة في الجمل وصفين. فاعتبروها اجتهادات فيها الخطأ والصواب.

والإمام علي معلم أول للأصول والفقه وأدب الدنيا والدين: يقول عن الخوارج الذين كفروه! وطلبوا إليه التوبة: "إخواننا بغوا علينا"(٧٣).

والإمامية يقولون: إن رسول الله ﷺ أوصى إلى اثنى عشر إماما بأسمائهم. كل منهم يبين خلفه باسمه. إذ يكشفه الله له. أولهم علي الذي أوصى للحسن. وأوصى الحسن للحسين. وتتابعت لزين العابدين ومنه للباقر الذي أوصى للصادق. وتتابعت الوصية من الصادق إلى ابنه موسى الكاظم (١٨٣) فابن الكاظم علي الرضا، (٢٠٣) فابن الرضا محمد الجواد (٢٢٠) فابن الجواد علي الهادي (٢٥٤) فابن الهادي الحسن العسكري (٢٦٠) فابن العسكري محمد المهدي المولود بسامرا سنة ٢٥٦، والمختفي بعد عام ٢٦٠ والمنتظر ظهوره ليملأ الدنيا عدلا.

---

(٧٣) ويقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: "وكل من عاداه أو حاربه وأبغضه فإنه عدو لله سبحانه وتعالى وخالد في النار مع الكفار والمنافقين إلا من ثبتت توبته ومات على توليه وحبه. فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله.. رأيناه رضى إمامتهم وبايعهم وصلى خلفهم وأنكحهم وأكل فيئهم.. ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه. ولما لعنه لعناه. ولما حكم بضلال أهل الشام من كان بينهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه حكمنا أيضا بضلالهم.. والحاصل أننا لم نجعل بينه وبين النبي إلا رتبة النبوة. وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه. ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم".

وقول ابن أبي الحديد منطقي في اتباع علي. ومن المنطق كذلك ترتيب الآثار على بيعة الجمهور خليفة جديد، هو أمير المؤمنين الحسن بن علي، ثم انعقاد الصلح بينه وبين معاوية في السنة الحادية والأربعين فلا تسوغ معاملة أشياع معاوية معاملة المحاربين أو الخارجين على الإسلام. فلقد أصلح الله بالحسن بين هاتين الفئتين من المسلمين.

السنة:

يروي الحاث الأعور: قلت: يا أمير المؤمنين إذا كنا عندك سمعنا منك ما يشد ديننا وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة ولا ندري ما هي؟ قال: أو فعلتموها؟.. سمعت رسول الله ﷺ وعلى آله يقول: "أتاني جبريل فقال: يا محمد ستكون في أمتك فتن. قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله".

وإذا كان في الكتاب حل لكل مشكلة، فالسنن موضحة ومنفذة لأحكامه. والسنن إذ تروى عن جعفر بن محمد الصادق أو عنه عن آبائه أو تروى عن الأئمة عامة لا يوجد فيها صحابي يختلف الشيعة معه. وعلى أساس هذه الأحاديث قام فقه الشيعة الإمامية. مرويا عن الإمام فلا يناقشونه. فكلامه نصوص. أي هو سنة. في غنى عن الإسناد، تغني عن الاجتهاد. وفي كتبهم كما قيل ما يكفي الأمة حتى أرش الخدش.

وقد دون علم الأئمة وفقههم في كتبهم.، ومنه علم لدني عن الإمام المعصوم. ومنه تفسيرهم للقرآن(٧٤). والأئمة – عندهم – قد اختصوا بعلم ما لم ينص عليه وما لم يعلنه النبي ﷺ.

وأقوال الأئمة حجة تلي الكتاب والسنة. والفقهاء الشيعة لا يتجهون إلى الأدلة إلا في غيبة الإمام أو حديث الإمام.

والسنة أساسها القرآن. يقول الإمام الصادق: "إذا رويت لكم حديثا فسلوني: أين أصله من القرآن؟". روى يوما نهي النبي "عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال" فقيل له: أين هذا من كتاب الله؟ فأجاب: إن الله تعالى يقول: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس)، وقال تعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما).

---

(٧٤) والشيعة تنفي قول القائلين بالصرفة وهو ما يزعمه بعض المعتزلة "النظام" من أن الله صرف المشركين عن أن يحاولوا الإتيان بمثله. فهذا القول مصير، نفي للإعجاز. والإعجاز آية الرسول ﷺ.

وقال تعالى: (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم).

فهذه أصول قرآنية ثلاثة لحديث واحد في السلوك. وهو عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى.

وإذا لم يكشف الإجماع عن رأي الإمام المعصوم فباب الاجتهاد مفتوح لطلب الحكم الشرعي فيما ليس فيه نص. والعقل – مع الضوابط التي يضعونها من قواعد وأصول – قدير على أن يبلغ المجتهد طلبه.

* * *

روى هشام بن سالم قول الصادق: "إنما علينا أن نلقى إليكم الأصول وعليكم أن تفرعوا" – وفي نهج البلاغة جملة من الأصول التي نبه عليها أمير المؤمنين علي، وتكلم فيها الأئمة الباقر والصادق والرضا: كالكلام عن الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنوافل والفرائض والرخصة والعزيمة والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والواجب وغير ذلك. ومما ردده الأئمة الثلاثة قواعد الجمع بين الحديثين المتعارضين، والترجيح بينهما، والتخيير، وأحكام النسخ، ولزوم رد المتشابه إلى المحكم، وجواز الأخذ بخبر الواحد، والعمل بالظاهر، ومنع القياس أو تفسير القرآن بالرأي،والعمل بالاستصحاب، وأصالة الحل والإباحة،والطهارة والبراءة والصحة. وقواعد الفراغ واليد والقرعة.

وكلام الإمام الصادق في هذه الأبواب كثير. ولهشام بن الحكم كتاب في مباحث الألفاظ وفي الأصول. وكذلك ليونس بن عبد الرحمن كتاب في الأصول.

والسنة المتواترة هي التي يتكاثر رواتها ويتفرقون إلى حد لا يمكن معه اتفاقهم على الكذب. وبهذا يتحصل علم قاطع بأنهم لم يجمعهم جامع على الكذب. والتواتر عن الرسول كالتواتر عن الإمام المعصوم.

والإمام الصادق يقول: "حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي. وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين. وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله. وحديث رسول الله قوله تعالى".

والتعبير بأن حديث الرسول هو قوله تعالى يعدل القول بأن السنة هي الحكمة التي ذكر القرآن أن الرسول يعلمها للمسلمين.

وخبر الواحد مقبول لدى جمهور الفقهاء عندهم. وحجتهم في ذلك – على الجملة – كحجج أهل السنة(٧٥).

والصادق لا يرى بأسا في رواية الحديث بالمعنى. سأله تلميذه: أسمع منك الحديث فأزيد وأنقص؟ فأجاب: "أن تريد معانيه فلا بأس".

ولا يضيقون صدرا بالإرسال من الثقات، بغير معارض، فلقد تقرأ "صحيح فلان عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام"(٧٦).

ويمكن القول إجمالا إن الحديث عندهم صحيح وحسن وموثق وضعيف.

فالحديث الصحيح هو الذي ينقله العدل الضابط عن مثله في جميع الطبقات حتى الإمام المعصوم.

---

(٧٥) أما الرواة عموما فيشترط أن يكونوا من الإمامية الاثنا عشرية يروون عن "إمام" عن النبي. وثمة من يقبل رواية غير الإمامي مادام موثقا أي أمينا عند الإمامية. قالوا: "لو كان بعض رجال السند غير إمامي مصرحا بالتوثيق أو مصرحا بالمدح لا بد من كون الباقي إماميا موثقا".

(٧٦) والإرسال لا يمنع قبول الحديث عند أهل السنة.

كان إبراهيم النخعي يروي الحديث مرسلا. فيقول له الأعمش: إذا رويت لي حديثا فأسنده فيجيب: إذا قلت: حدثني فلان عن ابن مسعود فهو الذي رواه. وإذا قلت: قال عبد الله فغير واحد. والحسن البصري يقول: "إذا قلت لكم حدثني فلان فهو حديثه ومتى قلت قال رسول الله ﷺ فعن سبعين".

والحديث الحسن هو المتصل السند بالإمام المعصوم. فإن انقطع السند لم يعد حسنا. ويشترط أن يكون الراوي ممدوحا من غير معارضة ذم وإن لم تثبت العدالة. فلو ثبتت لكان صحيحا.

ولا يمكن أن تصل رواية غير الإمامي إلى إحدى هاتين الدرجتين مهما كانت منزلته من التقى والفقه.

والحديث الموثق هو ما دخل في طريقه غير إمامي إذا كان الأصحاب الإمامية يوثقونه. وهنا لا يشترط الاتصال بالإمام المعصوم. وهناك من يشترط أن يتوسط غير الإمامي إماميين. وهناك من يرفضه.

والحديث الضعيف غير هذه الأقسام الثلاثة:

وما لا يبلغ حد التواتر يسمى خبر الواحد. فوصف الواحد يراد به عدم التواتر، وقد يكون عن متعددين. فالخبر المستفيض والمشهور نوع من خبر الواحد. المستفيض ما رواه أكثر من اثنين. والمشهور ما اشتهر على الألسن وفي الكتب، وإن كان رواية واحد(٧٧).

---

(٧٧) الخبر الذي يحصل العلم بصدور، من قرائن داخلية أ وغيرها مطابقة لظاهر القرآن أو معانيه أو لأدلة العقل، حجة معتبرة، لا للشهرة أو الاستفاضة أو التواتر أو أي شئ آخر، بل للعلم بصدور، الذي هو حجة بنفسه – فالخبر المتواتر أو المعلوم بصدور، لا حاجة لشروط في روايته وإنما الشروط في خبر الواحد.

وقد يعملون بالضعيف إذا اشتهر العمل به بين الأقدمين – أما علامات وضع الحديث فهي كمثلها عند أهل السنة تقريبا.

وليس عجيبا أن تكون السنة التي يتمسك بها الشيعة في مجموعها هي السنة التي يتمسك بها أهل السنة فخلافات الروايات وإسنادها أو إضافة مصدر الأئمة، لم تدخل في التراث النبوي العظيم ما يغير.

ومشايخ الإمامية يوثقون المخطئين في الاعتقاد. والإمام الصادق إذ يقول:"خذوا ما رووا. وذروا ما رأوا" يقصد آراءهم.

ولقد طالما رفض مجتهدوهم أحاديث ذكرت في كتبهم، وأخذوا بما جاء في صحيح البخاري ومسلم لتفحصهم أحوال رجالهما.

أما الشهادة فيقول فيها الإمام جعفر: "لو لم تقبل شهادة المقترفين للذنوب لما قبلت إلا شهادة الأنبياء، والأوصياء. فمن لم تره بعينيك يرتكب ذنبا ولم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة والستر. وشهادته مقبولة وإن كان في نفسه مذنبا".

وإذا كان في بعض المذاهب من لا يقبل شهادة أصحاب الصنائع التي يسمونها "دنيئة"، فالإمامية يرون قبول شهادتهم. والله يقول: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فليس في الصناعات شريف ومشروف، وإنما الصناع فيهم من هؤلاء وهؤلاء.

والشيعة – مع هذا – ضائق صدرهم بالطفيليين والمستجدين، فهؤلاء متساهلون في عزة النفس التي أمر الله بها المسلمين.

* * *

والصادق يقول: "إن الإجماع لا ريب فيه". وهو عند الإمامية "اتفاق جماعة يكشف اتفاقهم عن رأي المعصوم" فلا يخلو عصر من وجود الإمام ظاهرا أو خافيا. وإذ كان اتفاق جامعة من الإمامية فيخرج غيرهم. ومن أجل ذلك عرفت آراء الصادق من خلال اتفاق تلاميذه.

وليست الحجة للإجماع. بل هي لرأي الإمام المعصوم الذي يكشف عنه الإجماع.

والإجماع يثبت بالتواتر والمشاهدة وبخبر الواحد. وليس اجتماع الرجال شرطا عندهم. والإجماع من عصر أو عصرين لا يجعل الحكم ضرورة دينية أو مذهبية. بل يكون اجتهاديا يقبل الجدال. أما إجماع الأمة في كل عصر ومصر، من عهد الرسول للآن، فيجعل الحكم من ضرورات الدين. والإجماع من الصحابة يدخل فيه علي بن أبي طالب. فهو الإمام المعصوم.

* * *

والعقل يكشف عن نظر الإمام إن لم يوجد نص أو إجماع.

فالاجتهاد(٧٨) مفتوح أبدا في الظنيات التي ليس فيها دليل من الشرع يفيد اليقين، وليس للعقل فيها حكم واجب حتم. كخلاف الصحابة في العول في المواريث وعدة الحامل المتوفى عنها زوجها. وكالمعاملات. أما القطعيات فلا اجتهاد فيها كالعقائد الواجبة، وما ثبت من الأحكام العملية بالتواتر. والعقائد كاتصاف الله بالكمال وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، والبعث والحساب. والأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج.

---

(٧٨) يشترط الشيعة في المجتهد:

١- العلم باللغة.

٢- بالكلام.

٣- بكتاب الله والسنة.

٤- بطرق الاستنباط.

٥- المسائل المجمع عليها حتى لا يخالفها اجتهاد.

٦- القطنة وإدراك الحقائق.

٧- العلم بمواطن الخلاف. كل ذلك.

٨- وهو إمامي.

وليس من وسائل اجتهاد الشيعة القياس. فالإمام الصادق يقول: "إن السنة إذا قيست محق الدين"، ولما قيل له أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ قال: "ما أجبتك فيه من شئ فهو عن رسول الله ﷺ. لسنا من أرأيت في شئ" لكن وسائل استعمال العقل مباحة للمجتهد.

والإمام الصادق يقول: "ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال".

وآيات الأحكام قليلة، وكمثلها قلة، أحاديث أصول الأحكام[٧٩]، فوجب الاجتهاد.

ونحن مأمورون باستعمال العقل. وحكم السماء تظهر للعقول بالتدريج.

كان أصحاب النبي يجتهدون في وجوده وازدادت حاجتهم للاجتهاد بعد موته. والدنيا أطوار تحتاج للفقه الذي يطبق عليها حكم الشريعة لتبقى الحياة محكومة بالدين، وتتطور في حدود مقاصد الشارع.

وحكم الله في كل مسألة معين، نصب الله دليلا عليه. فمن المجتهدين من يصل إليه ويصيبه.ومنهم من لا يصل إليه ويظن غيره. فهو مخطئ معذور. مغفور له خطؤه ما دام قد بذل جهده دون هوى. وللمصيب أجران لصوابه واجتهاده وللمخطئ أجر واحد على اجتهاده.

فذلك حكمه ﷺ[٨٠]. ومن أجله كانت السماحة التي اتصف بها الصحابة إذ يختلفون.

---

(٧٩) آيات الكتاب (٦٢٣٦) آية على طريقة عد الكوفيين كما ورد في التعليق على المصحف المتداول بمصر من سنة ١٣٣٧ هجرية أحصى بعض فقهاء أهل السنة نحو (١٤٠) في العبادات، و(٧٠) في المعاملات، و(٧٠) في الأحوال الشخصية والمواريث، (٢٠) في الجنايات، و(١٣) في المرافعات، و(٢٠) في القضاء والشهادة،(١٠) في الاقتصاديات و(١٠) في المسائل الدستورية، (٢٥) في المسائل الدولية – وأحاديث أصول الأحكام عندهم نحو (٤٥٠) بين آلاف الأحاديث أكثرها بيان مجمل أو تفصيل موجز أو تشريع ما سكت عنه.

والمنصفون من كل المذاهب يعلنون أن في المذاهب الفقهية المعتبرة خطأ وصوابا. وليس منها مذهب واحد كله خطأ أو كله صواب. لذلك كان التعصب المطلق آفة تئوف الفقهاء. لقد كثرت مخالفات علي لعمر،ونزول عمر عند رأي علي.

وعلي هو القائل بأنه ترك لعمر تنفيذ رأيه "في بيع أمهات الأولاد" في حياة عمر، ولما آل إليه الأمر أنفذ رأيه. فعلمنا أمورا منها:

١- أن المذهب الشيعي وهو يدور حول آراء علي، إنما هو مذهب حي في حياة الخلفاء الراشدين أنفسهم. فلما آل إليه الأمر وأتيحت له الفرصة التي أتيحت لغيره لتطبيق اجتهاداته أنفذها – ولكن المكان والزمان ضاقا عليه لتوزع جهده في الحروب، وانحصار سلطانه على ألأرض، ومعاجلته بيد الخوارج.

٢- حق الخليفة في إنفاذ رأيه. ومن ثمة أنفذ عمر رأيه في أمور شتى كما أنفذ أبو بكر رأيه من قبل. والرأي اجتهاد.

٣- مشروعية الخلاف. وهو درس تعلمه الصحابة من صاحبهم ﷺ. مطلوب من الجميع أن يتعلموه. وأن يعلموا الناس أنه وسيلة التقدم.

روى النسائي أن رجلا أجنب فلم يصل. فذكر ذلك للنبي فقال: أصبت. وأجنب رجل فتيمم وصلى، فذكر ذلك للنبي فقال: أصبت. وروى البخاري عن عمران بن حصين أنه قال للرجل الذي اعتزل فلم يصل في القوم: "فما يمنعك أن تصلي" فقال: أصابتني جنابة ولا ماء.

قال: "عليك بالصعيد. فإنه يكفيك".

---

(٨٠) يقول عليه الصلاة والسلام لمن سأله اجتهد وأنت حاضر؟ نعم. إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر.

ورأى عمرو بن العاص فيما فهم من قوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) جواز التيمم للجنب إذا خاف على نفسه البرد.

والآثار في الخلاف بين الصحابة كثيرة جدا[٨١].

والخلاف بين المجتهدين أجل من أن يحصر. وفيه ثراء للفكر، وسعة في الدنيا، ورحمة بالأمة.

كان أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الفصد والحجامة والرعاف.

فقيل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلي خلفه؟

فقال: كيف لا أصلي خلف "مالك"وسعيد بن المسيب"؟

وكان مالك يفتي الرشيد أنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم. فصلى يوما بعد الحجامة وصلى خلفه "أبو يوسف" صاحب "أبي حنيفة" "وهو يرى الوضوء من الحجامة".

واغتسل أبو يوسف في الحمام، وأخبر بعد صلاة الجمعة أنه كان في بئر الحمام فأرة ميتة فلم يعد صلاته وقال: "نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا".

فهؤلاء أئمة المذاهب لا يتسامحون في خلافاتهم فحسب.بل يتجاوزون الخلاف العلمي إلى التطبيق العملي.

---

(٨١) راجع نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي "من مطبوعات لجنة تجلية مبادئ الشريعة الإسلامية" – عبد الحليم الجندي – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فقرات ٤٢ إلى ٤٨.

من أجل ذلك يقول أحمد لتلميذه إسحق بن بهلول إذ ألف كتابا يريد أن يسميه "كتاب الاختلاف": "سمه كتاب السعة".

ويقول عمر بن عبد العزيز "ما سرني باختلافهم حمر النعم".

الإمامة:

الإسلام دين ودولة. فالدولة تكفل لمبادئ الإسلام التطبيق، والانتشار، وانتفاع الجماعة والأفراد به. بالدين عزة الفرد والجماعة، ورسوخ أركان الدولة. والدين للدولة روح للجسد. وهو للفرد دم نقي يجري في عروقه أو هواء صحي يتنفسه. ولا حياة إلا بالدم والتنفس. وكان من آيات الإعجاز الإسلامي أني بلغ المسلمون الذروة أفرادا أو دولا أو مجتمعات في عصر، أو في أشهر، بل في ساعات،بمجرد إخلاصهم في التمسك بالإسلام.

لقد بلغوا ما يدعو إليه الإسلام في "خلافة" أبي بكر وعمر،والسنين الستة الأولى من "خلافة" عثمان، وفي أقل من ثلاثين شهرا في "خلافة" عمر بن عبد العزيز. والخلافة الراشدة قيادة مسددة.

ولقد بلغ المحاربون مبالغهم، في يوم واحد، هو العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣، إذ كانوا يقتحمون حصون إسرائيل وهم يتنادون: الله أكبر. الله أكبر.

والإمامة – أو الخلافة – قد تكون خلافة عن النبي في تبليغ الأمور الدينية أوفي الولاية السياسية أو فيهما جميعا. وهي عند الشيعة دينية وسياسية محصورة في أهل البيت. لكنها عند جمهور أهل السنة تجوز لأي قرشي عادل، يختاره المسلمون بشورى صحيحة،وبيعة عامة.

ولا تبقى الخلافة إلى ما بقى الخليفة قائما بالعدل، فإذا انحرف لم تبق خلافة نبوية بل استحالت سلطة دنيوية أي ملكا.

والشافعية والمالكية والحنابلة يرون القرشي العادل إذا تغلب، فبايعه المسلمون بيعة صحيحة راضين مرضيين، تكون البيعة له صحيحة، وإن تأخرت عن الولاية التي نالها بالغلبة. أما الحنفية فيشترطون سبق البيعة ضمانا للحرية وكفالة للمشورة.

والشيعة الإمامية يرون الإمامة ثابتة لاثنى عشر إماما بذواتهم لا بالبيعة لهم، ولكن بالوصية إليهم. وهم علي وبقية الاثنى عشرة، والله يعلن الإمامة لمن قبله فيوصي السلف للخلف. وليست بيعة الجماعة لهم إلا إعلان رضا المسلمين بهم، لا ترشيحهم أو اختيارهم.

والشيعة الإمامية يرون "واجبا على الله تعالى" أن ينصب إماما للناس لطفا منهم بعباده. وأهل السنة يرون نصب الإمام "واجبا على الناس".

أما الخوارج فلا يرون واجبا نصب الإمام، بل يرونه "جائزا"، إلا إذا قامت الحاجة إليه فيجب. وهم كالمعتزلة يرون أن الخلافة يصلح لها أصلح رجل في الأمة عربيا أو غير عربي، ويرون أنها تكون بانتخاب حر. ويؤثرون أن ينتخب غير قرشي، ليسر نزعه إن أخطأ.

يقول الإمام الصادق: "لا يموت الإمام حتى يعلم من يكون من بعده فيوصي له"، ويقول: "أترون الموصي منا يوصي إلى من يريد؟ لا والله. ولكن عهد من الله ورسوله لرجل فرجل، حتى ينتهي الأمر إلى صاحبه".

ويقول لتلميذ له: "يا أبا محمد إن الله افترض على أمر محمد ﷺ خمس فرائض. الصلاة والزكاة والصيام والحج وولايتنا. فرخص لهم في أشياء من الفرائض الأربعة. ولم يرخص لأحد من المسلمين في ترك ولايتنا. لا والله ما فيها رخصة. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "من مات وليس عليه إمام مات ميتة جاهلية". عليكم الطاعة فقد رأيتم أصحاب علي".

ومن توفيق الإمام جعفر، وأبنائه، أنهم لم يطلبوا لأنفسهم خلافة دنيوية. وبهذا يتميز تاريخ الشيعة الإمامية من الشيعة الإسماعيلية، التي ستظهر بعد موت الإمام بوقت طويل. والتي كان من أهدافها ولاية السلطة، وإقامة الدول.

قال سليمان بن خالد للإمام الصادق: إن الزيدية قوم عرفوا وخرجوا وشهدهم الناس، وما على الأرض محمدي أحب إليهم منك. فإن أردت أن تدنيهم وتقربهم منك فافعل. فأجاب: "إن كان هؤلاء السفهاء يريدون أن يصدونا عن عملنا إلى جهلهم، فلا مرحبا بهم، وإن كانوا يسمعون قولنا وينظرون أمرنا، فلا بأس".

ومع أن "مؤمن الطاق" – تلميذ الإمام الصادق – ثبط زيدا عن الخروج، "فالصدوق" يروي عن الإمام "الكاظم" قول أبيه: "رحم الله عمي زيدا. إنه دعا إلى الرضا من آل محمد. ولو ظفر لوفى". فزيد لم يدع لنفسه، لأن الإمامة كانت للباقر. وإنما كان خروجه تجديدا للاستشهاد عندما تدعو دواعيه.

يقول الصادق: "مضى والله عمي زيد وأصحابه شهداء على مثل ما مضى عليه الحسن بن علي بن أبي طالب وأصحابه". بل هو يعلن الاستعداد للاستشهاد،ويراه واجبا من واجبات أهل البيت عامة، والأئمة خاصة. وأبو بصير يروي عنه قوله: "إن الله تعالى أعفى نبيكم أن يلقى من أمته ما لقيت الأنبياء من أممها. جعل ذلك علينا".

والشيعة مجمعون أن عليا أولى بالخلافة – دينية أو دنيوية – من الصديق ومن عمر ومن عثمان – لكن عليا سما عن أن يترك في الأمة صدعا يوم بايع لأبي بكر، وقبل استخلاف أبي بكر لعمر، وبايع لعثمان مع المسلمين.

وتسبيب البيعة بأنها كانت لرأب الصدع فيه تسليم بأن ولاية شئون الدولة يمكن أن تنفصل عن الخلافة الدينية. فلو كانت غير ذلك لما سلم علي في أمر يخالف الدين. ولقد طالما عالن الخلفاء الثلاثة برأيه الشجاع. وأجمعوا دائما على تقديره، ونزلوا عنده – وسيبقى له في ضمير التاريخ وصحفه أنه دخل في إجماع المسلمين. فذلك درس لهم – من درسوه التي لا تكاد تحصى – ليعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا.

والذين يقولون – من أي فريق – إن عليا بايع "مرغما" يتأولون. فعلي أعلى صوتا ومكانا من أن يرغم، أو لا يعلن رأيه، مواجهة، ولما بايع عمر لأبي بكر يوم السقيفة، كان يومئذ – كعلي بوم بايع – يرأب الصدع بين المهاجرين والأنصار، وهم بين أظهرهم. ولما جعل عمر الخلافة شورى في الستة بعده، كان مسئولا عن المسلمين، كما كان أبو بكر يوم استخلفه.

وعلي في طليعة المسئولين، وكمثله الأئمة بعده.

والذين ينسبون إلى الشيعة ما صنعه أو فهمه الدهماء منهم من قدح في أبي بكر أو في عمر ظالمون. ومن الشيعة مفكرون يعلنون أن من تعود البعض من الشيعة أن يلعنوه في احتفالات مآثم عاشوراء – وقد ظهرت بعد موت الإمام جعفر الصادق بقرن في عهد دولة بني بوية – هو عمر بن سعد قائد الجيش الذي قتل الحسين.

جاء في كتاب الأستاذ أحمد مغنية عن الإمام جعفر الصادق: "وقد حورب المذهب الجعفري في عهد العثمانيين والأتراك.. كما أن المفرقين أنفسهم وجدوا في اتفاق الاسمين: عمر بن الخطاب وعمر بن سعد قاتل الحسين، ميدانا واسعا يتسابقون فيه في تشويه الحقائق.. يعرف الناس جميعهم أن الشيعة يعنون عناية تامة في المآتم الحسينية التي تقام أيام عاشوراء وغير عاشوراء من أيام السنة.. والحسين هو موضوع تلك المآتم.. وكان طبيعيا أن يكون لعنة اللعنات عمر بن سعد. ومن من المسلمين وغير المسلمين لا يلعن عمر بن سعد قاتل ابن بنت رسول الله؟.. لا أنكر وجود أفراد– بالأمس – من سواد الشيعة وبسطائهم لا يفرقون بين هذين الاسمين بل لا يعرفون أن في دنيا التاريخ الإسلامي عمرين تقيا وشقيا.. وساعد على بعد الشقة وتوسيع نطاق الفتنة شيوخ جهلة مرتزقة أئمة من كلتا الطائفتين السنية والشيعة...".

وأيا كانت الجهالة أو العصبية فهي بلاء ابتليت به الأمة يتفجر بذاء وخصومات في المناسبات – وفيما كان يقع بين مذاهب أهل السنة مشابه منها – والمؤكد أن ائمة المذاهب منها

براء. وأن الجيل الذي تعلم عليهم برئ من التعصب أو الافتراء.وأن العلماء الصدق بعيدون عن متابعة السواد والبسطاء[٨٢].

* * *

وفقه المذهب غزير في الإمامة مذ فتق الكلام فيها التلاميذ في حياة الإمام وبعد مماته. مستندين إلى أحاديث للنبي ﷺ وعلى آله، وردت في كتبهم وفي كتب أهل السنة ذاتها – ويرتبون عليها نظرية الإمامة. أما أهل السنة فلهم في شأن هذه الأحاديث وجهات نظر أخرى حول السند وحول المعنى اللازم.

إليك "بعض" الأحاديث:

يقول عليه الصلاة والسلام: "يا أيها الناس. إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا. كتاب الله وعترتي، أهل بيتي"[٨٣] ويقول: "إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء وعترتي أهل بيتي. ولن يفترقا حتى يردا على الحوض. فانظروا كيف تخلفوني فيهما"[٨٤] ويقول: "إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله.. وعترتي أهل بيتي"[٨٥].

---

(٨٢) يذكر الراغب الأصفهاني في المحاضرات من قرون مضت:سئل رجل كان يشهد بالكفر على آخر عند جعفر بن سليمان فقال: إنه رجل معتزلي، ناصبي، حروري، جبري، رافضي، يشتم علي بن الخطاب، وعمر بن أبي قحافة، وعثمان بن أبي طالب، وأبا بكر بن عثمان. ويشتم الحجاج الذي هدم الكوفة على أبي سفيان. وحارب الحسين بن معاوية يوم القطائف فقال جعفر: "قاتلك الله. ما أدري على أي شئ أحسدك. أعلى علمك بالأنساب أم بالأديان أم بالمقالات".

(٨٣) أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر.

(٨٤) أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم.

(٨٥) أخرجه أحمد بن حنبل بطريقين صحيحين وأخرجه الطبراني.

ويقول: "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي.. فانظروا كيف تخلفوني فيهما"[٨٦] أو "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وإنهما لن يفترقا.." [٨٧] – ذلك أنه لما رجع عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع نزل بغدير خم يوم ١٨ ذي الحجة في السنة العاشرة – والشيعة تعتبره عيدا يسمى عيد الغدير – كان قد نزل عليه الوحي "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس"، فأمر بدوحات فقممن فقال: "كأني دعيت فأجبت.. إني قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى وعترتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض.. ثم قال: إن الله عز وجل مولاي. وأنا مولى كل مؤمن. ثم أخذ بيد علي وقال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه"[٨٨].

وابن حجر في صواعقه يقرر أن لهذا الحديث طرقا كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابيا مع اختلاف في المكان أهو غدير خم أم الطائف أم المدينة. أما طرقه عن أهل البيت فنحو ثمانين طريقا.

وفي علي قوله ﷺ: "من أحب أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة التي وعدني ربي فليوال عليا وذريته من بعده. فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم في باب ضلالة"[٨٩].

وفي أهل البيت قوله ﷺ: "ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح. من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق. وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل. من دخله

---

(٨٦) أخرجه أحمد بن حنبل وآخرون.

(٨٧) أخرجه الحاكم في المستدرك وآخرون ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٨٨) أخرجه الحاكم من طرقين عن زيد بن أرقم. وأخرجه مسلم في صحيحه حتى كلمة الحوض مع خلاف في بعض الكلمات.

(٨٩) مسند أحمد بن حنبل – ابن حجر – كنز العمال – وبهذا المعنى في المستدرك.

غفر لـه"[٩٠]. وقولـه: "النجوم أمـان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتـي أمـان لأهل الأرض من الاختلاف"[٩١].

والشيعة مؤمنون بأنه لا ينقض حجة هذه الأحاديث على منزلة أهل البيت ومكانة علي، تأويلها من بعض أهل السنة أو التشكيك فيها من البعض الآخر.

وآخرون يرونها سندا صحيحا في تكريم علي ولا يرونها سندا في الإمامة بالمعنى الذي يريده الشيعة.

* * *

ولقد كان الصحابة يجلون عليا كل الإجلال. والكثرة منهم لا تسلم له بأولوية الخلافة على سابقيه من الخلفاء. ثم جاء جيل جديد أصبح فيه إنكار هذه الأولوية وسيلة للسلطة لتثبيت شرعيتها، بل طريقا إلى أصحاب السلطة، يسلكه من يلتمسون المصلحة أو الجاه أو الراحة.

لكن الأمة بقيت على حب علي وأبنائه. وكثرتها ككثرة الصحابة في إجلاله.

فالشافعي – أكبر عقلي علمي – يضع حب أهل البيت بين فرائض الدين ويذكر المسلمين بأن الصلاة على أهل البيت جزء من الصلاة لله.

---

(٩٠) الصواعق لابن حجر.

(٩١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس.

وفي مسند أحمد أن عمر كان أول المهنئين لعلي يوم الغدير. كما هنأه الصحابة الحاضرون.

يقول:

يـا أهـل بيـت رسـول الله حبكمـو فـرض مـن الله فـي القـرآن أنزلـه

كفـاكمو مـن عظـيم القـدر أنكمـو مـن لـم يصـل علـيكم لا صـلاة لـه

والإمام أحمد يقول: "ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ما جاء لعلي" وتشيع أبـي حنيفة محل إقرار أو إنكار. وهو القائل: "لولا السنتان لهلك النعمان" قاصدا مدة دراسته على الإمام الصادق. ومالك بن أنس من أنبه تلاميذ الإمام جعفر ذكرا. والأربعة أئمة أهل السنة.

أخرج أحمد بن حنبل عن عائشة: جاء رجل فوقع في علي وعمار عند عائشة. فقالت: أما علي فلست قائلة لك فيه شيئا وأما عمار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول فيه: "لا يخير بين أمرين إلا اختار أرشدهما".

ولقد كان عمار من أول حياته في الإسلام، حيث كان في آخر يوم في حياته في الدنيا، مع علي. وفي جنده مات في صفين وهو في التسعين. قتلته الفئة الباغية عليه وعلى علي معه.

ولقد أوصى[٩٢] النبي لعلي أن يغسله ﷺ ويجهزه ويدفنه ويفي دينه وينجز وعده، ويبرئ ذمته ويبين للناس ما اختلفوا فيه. وما ذلك إلا لأن عليا منه ومن أهل بيته حيث هو.

---

(٩٢) ومن نصوص وصية النبي الصريحة بالإمامة لعلي: عن محمد بن حميد الرازي –= وقد وثقه الأئمة: أحمد، ويحيى، وابن جرير الطبري، والبغوي – عن أبي بريدة "لكل نبي وصي ووارث وإن وصيتي ووراثي علي بن أبي طالب" ومثله – بالمعنى مروي عن سلمان الفارسي. وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة: "يا فاطمة. أما ترضين أن الله عز وجل اطلع إلى أهل الأرض فاختار اثنين أحدهما أبوك والآخر بعلك" وعن

من هذه المكانة لعلي كان معه في صفين ثمانون من الصحابة الأحياء كلهم بدري، وهؤلاء من أهل الجنة.

أما معاوية فمعه الواهمون أو أهل الدنيا الذين يعتدهم ويمنيهم، لتصير الأمور إلى ما انتهت إليه في أيامه وما بعد أيامه.

وأما الأمة فجعلت مكان معاوية من علي، مثلا سائرا في اللسان العربي. "وأين معاوية من علي".

يقول الأحنف بن قيس: دخلت على معاوية فقدم إلي الحار والبارد والحلو والحامض مما كثر تعجبي منه. ثم قدم لونا لم أعرف ما هو. فقلت: ما هذا؟ قال: هذا مصارين البط محشوة بالمخ.. قد قلي بدهن الفستق. وذر عليه بالطبر زد! فبكيت.فقال: ما يبكيك؟ قلت: ذكرت عليا.. بينما أنا عنده وحضر وقت الطعام وإفطاره "إذ كان صائما" وسألني المقام. فجئ له بجراب مختوم. فقلت: ما في الجراب؟

قال: سويق شعير. قلت: خفت عليه أن يؤخذ أو بخلت به؟

قال: لا. ولا أحدهما. ولكني خفت أن يلته الحسن والحسين بسمن أو زيت. فقلت: محرم هو يا أمير المؤمنين؟

ابن عباس أن الرسول قال لها: "أما ترضين أني زوجتك أول المسلمين إسلاما وأعلمهم علما وأنك سيدة نساء أمتي كما سادت مريم نساء قومها؟ أما ترضين يا فاطمة أن الله اطلع إلى أهل الأرض فاختار رجلين فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك؟".

ومنها أن النبي يقول عن الحسين: "ابني هذا إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تاسعهم قائمهم".

قال: لا. ولكن يجب على أئمة الحق أن يعتدوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلا يطغى الفقير فقره.

فقال معاوية: ذكرت من لا ينكر فضله.

* * *

يرى الشيعة أهل البيت ثاني الثقلين وأولهما القرآن، والثقل كل خطير نفيس. وهم عدل القرآن في الأمة،وخلفاء الرسول في الحفاظ على الشريعة. فللأئمة جميع ماله من المناصب ما عدا رتبة النبوة. ولديهم الكتب التي دون فيها علم النبوة، وفيهم ينحدر الهدي النبوي، وتنحصر الإمامة.

وأن الله سبحانه وتعالى يختار للنبوة من يشاء ويختار للإمامة من يشاء. ويأمر نبيه بالنص عليه وتنصيبه للناس بعده للقيام بوظائفه، إلا أن الإمام لا يوحى إليه بل يتلقى الأحكام عن النبي مع تسديد السماء له، فهو مبلغ عن النبي، في حين أن النبي مبلغ عن الله جل شأنه.

والإمامية يرون الإمام إنسانا من البشر. لكنه أفضل أهل زمانه.ولا تجوز عبادته فهذا عمل من خداع إبليس. وأن من هذا شأنه يجب أن يكون معصوما من الخطأ. فالناقص لا يكمل غيره. ووجه الحاجة إلى العصمة فيه وفي النبي واحد. (٩٣) وهو حفظ الأحكام عن الخطأ. وإذ كان ذلك كذلك، فما يرد عن الإمام سنة. سواء أكان رواية عن النبي أم كان رأيه لأنه نص. أما ما لا يرد عن الإمام فهو محل للاجتهاد وفق القرآن والسنة والإجماع والدليل العقلي.

أما ولاية الحكم، فقد رأينا الإمام الصادق وآباءه لم يطلبوها كما لم يطلبها الأئمة بعده.

---

(٩٣) يقول الشريف المرتضى في كتابه "تنزيه الأنبياء": "قالت الشيعة الإمامية: لا يجوز عليهم "الأنبياء" شئ من المعاصي والذنوب. كبيرا كان أو صغيرا لا قبل النبوة ولا بعدها. ويقولون الأئمة مثل ذلك".

يقول الكاظم لهشام: "كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا". فما أحراهم أن يتركوا للملوك ما يتناحرون عليه.

ويعتبر الشيعة الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثنى عشر من أصول الدين عندهم وأنها "رديفة" التوحيد والنبوة، وفي حين لا يوافق أهل السنة على ذلك، لا تكفر الشيعة أهل السنة في إنكارها هذا الأصل. ولا يكفر أهل السنة الشيعة باعتقادها في الإمامة.

وإنما يشتد الخلاف من جراء الغلو في الأئمة ونسبة أشياء إليهم يختلف في بعضها أهل السنة أنفسهم، كالرجعة، أو القدح في بعض الصحابة، كعمرو ومعاوية والمغيرة. أو يختلف فيها الشيعة أنفسهم كولاية المفضول، والنص على الإمام بالاسم لا بالوصف. مما حدا بالأضداد والأشياع إلى تبادل أزمة الثقة. أما الفاقهون فأدخلوا خلافاتهم في إطار ما يختلف فيه المجتهدون. وأما المتعصبون، من كل ملة، فيتقاطعون.. وما يتقاطعون إلا للمصلحة أو للغلواء أو لضيق الأفق[٩٤].

---

(٩٤) دخل إبراهيم بن هرثمة على المنصور فتهدده لأنه يمدح أهل البيت. ولما خرج إبراهيم لقى علويا سلم عليه فصاح به: لا تشط بدمي.

وفي سنة ٣٥٠ استعانت الجماهير بالجند ضد الشيعة. وفي سنة ٣٦٣ قتل الكثيرون من أجل إقامة الشيعة لشعائرهم. وفي سنة ٤٠٣ صدر مرسوم بلعن العلويين خلفاء مصر وإنكار نسبهم. وكانت موقعة الكرخ فتكا بأموال الشيعة وأرواحهم وأطفالهم. وفي سنة ٤٣٩ كبست دار الطوسي ببغداد. وفي سنة ٤٤٨ و٤٤٩ أحرقت مكتبة الطوسي فترك بغداد إلى النجف.

وعدوان المالكية على الشافعي في جامع عمرو مشهور. وطرد المالكية والحنفية من أجل الشغب في جامع عمرو بعد ذلك بأمر القاضي الحارث بن مسكين معروف. وكذلك فتنة الحنابلة في مجلس الطبري (٣١٠) وفي عهد البرهاري وفيما بعده وقد طالما أرهجت بغداد.

ومن الإزراء بالتعصب المذهبي تتردد على الألسن سخرية الزمخشري، وهو حنفي:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به ... وأكتمه.. كتمانه لي أسلم
فإن حنفيا قلت، قالوا بأنني ... أبيح الطلى وهو الشراب المحرم
وإن شافعيا قلت، قالوا بأنني ... أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن مالكيا قلت، قالوا بأنني ... أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم

ومرد عدم التكفير[٩٥] بين الشيعة وأهل السنة مع الخلاف في الاعتقاد بالإمامة، إلى أن الأصول – كما يقول الشيعة – ثلاثة: التوحيد، والنبوة، والبعث – ويكفي من التوحيد الإيمان

ولقد طالما كفرت جماعة جماعة أخرى: بغيا عليها أو تحاملا منها في التعبير عن الخلاف معها. كان نظام الملك (٣٨٥) وزيرا عظيما: ينشر العلم وينشئ المدارس، ويعمل للوحدة، ويحاول أن يجمع الخلافتين العباسية والفاطمية، أي أهل السنة والشيعة الإسماعيلية، وكان يجتمع لديه علماء الفرق، فدخل عليه عبد السلام بن محمد القزويني شيخ المعتزلة وعنده أبو محمد التميمي ورجل آخر أشعري، فقال له:

أيها الصدر. لقد اجتمع عندك رؤوس أهل النار. أنا معتزلي وذلك أشعري وهذا مشبه وبعضنا يكفر بعضا!!

وفي سنة ٤١٢ صدر مرسوم في بغداد كفر به الخليفة القادر المعتزلة وأمر باستتابتهم، وقد سبق منهم العمل عند الخلفاء لقهر المحدثين والفقهاء في عصر المأمون والمعتصم والواثق.

وفي حياة الفيروز ابادي الشافعي قامت الفتنة على الشافعية سنة ٤٧٩. وفي سنة ٥٠٧ قال قاضي الحنفية بدمشق: لو كان لي من الأمر شئ لوضعت الجزية على الشافعية. وفي سنة ٥٦٧ قال أبو حامد الطوسي المقال نفسه في الحنابلة! وفي سنة ٥٥٤ حرقت الأسواق في أصفهان لنزع الحنفية والشافعية. وفي سنة ٤٦٩ هاج الحنابلة في بغداد إذ ولي القشيري الوعظ بالمدرسة النظامية ومن قبل ذلك بعام سنة ٤٦٨ انتقل السمعاني من مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الشافعي فثار الحنفية بمدينة مرو في خراسان فنفاه سلطانها حقنا لدمه. وفي العصر ذاته أمر ابن تاشفين بإحراق كتب الغزلي في احتفال رسمي بمسجد قرطبة!

وذات يوم رأى الوالي الحنفي في بلاد ما وراء النهر في مخرجه للصلاة في الصباح مسجدا للشافعية فقال: أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق؟ وفي جيلان كان القوم حنابلة إذا قدم عليهم حنفي قتلوه! وجعلوا ما له فيئا للمسلمين! وأما أهل الأندلس فكانوا مالكية يطردون من الأندلس الحنفي أو الشافعي أو الحنبلي إذا وفد عليها. فإن كان معتزليا فربما قتلوه.

ومن سد الذريعة أفتى البعض بتعزير من يترك مذهبا لمذهب.

وفي القرن الثامن من الهجرة فصل من التدريس بمصر أبو العباس الحنبلي (٧١٦) لأنه ذكر أن عمر منع تدوين الحديث، وأن ذلك كان سبب تعارض النصوص في الحديث وخلاف العلماء.

وفي القرن العاشر علقت على باب زاوية رأس المولى ظهير المدين الأردبيلي لأنه قال: إن مدح الصحابة ليس بفرض!

وفي تركيا قتل في عهد السلطان سليم الأول (٩٢٦) نحو أربعين ألفا من الشيعة.

وهكذا تدور رحى البطش في كل اتجاه، لكن لها قانونا لا يتخلف هو أن الباطشين اليوم مبطوش بهم غدا.

(٩٥) أهل السنة لا يكفرون إلا من يجحد فرائض الإسلام لأنه جاحد للأصل. يقول الغزلي: "اعلم أن شرح ما يكفر به ولا يكفر به يستدعي تفصيلا طويلا. فاقنع الآن بوصية وقانون أما الوصية فأن تكف لسانك عن أهل القبلة، ما أمكنك، ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأما القانون فهو أن تعلم أن النظرات

بوحدانية الله تعالى.. ويكفي من النبوة الإيمان بأن محمدا ﷺ رسول الله صادق فيما أخبر به معصوم.. ويكفي من المعاد الاعتقاد بأن كل مكلف يحاسب بعد الموت.. أما الفروع التي هي من ضرورات الدين فهي كل حكم اتفقت عليه المذاهب الإسلامية كافة، من غير فرق بين مذهب ومذهب كوجوب الصلاة.. فإنكار حكم من هذه الأحكام إنكار للنبوة وتكذيب لما ثبت في دين الإسلام بالضرورة.

وضرورات "المذهب الشيعي" نوعان.. نوع يعود للأصول وهو الإمامة. فيجب أن يعتقد كل "شيعي" إمامة الاثنى عشر إماما.. والنوع الثاني يرجع إلى الفروع كنفي العول ونفي التعصيب.. فمن أنكر فرعا منها كان غير شيعي وإن كان مسلما.

والإيمان والإسلام عند الشيعة مترادفان، يثبتان لمن آمن بالتوحيد والنبوة والبعث. ويطلقان على معنى أخص هو هذه الأركان ومعها ركن العمل بدعائم الإسلام – وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد – ويزيدون ركنا خامسا هو الاعتقاد بالإمامة، وأنها منصب إلهي كالنبوة، منصوص على من يليها، وأن الإمام أفضل أهل زمانه. ومعصوم. فمن اقتصر على الأركان الأربعة الأولى مسلم مؤمن. وإنما الاعتقاد بالإمامة له أثر في منازل القرب والكرامة يوم القيامة.

يقول الإمام محمد بن الحسين آل كاشف الغطاء: نعم يظهر أثر التدين "بالإمامة" في منازل القرب والكرامة يوم القيامة – أما في الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء. وبعضهم لبعض أكفاء. وأما في الآخرة فلا شك أن المسلمين تتفاوت درجاتهم ومنازلهم حسب نياتهم وأعمالهم. وأمر ذلك وعلمه عند الله سبحانه. ولا مساغ للبت به لأحد من الخلق. والغرض أن أهم ما امتازت به الشيعة عن سائر فرق المسلمين هو القول بإمامة الأئمة الاثنى عشر. وبه سميت هذه الطائفة الإمامية. إذ ليس كل الشيعة تقول بذلك.. والقول بالاثنى عشر ليس بغريب عن أصول الإسلام وصحاح كتب المسلمين. فقد روى البخاري وغيره في صحاحه حديث الاثنى عشر خليفة

قسمان. قسم يتعلق بأصول القواعد وقسم يتعلق بالفروع. وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر وما عداه فروع. واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلا. غلا في مسألة واحدة. وهي أن ينكر أصلا دينيا من رسول الله ﷺ بالتواتر. لكن في بعضها تخطئة كما في الفقهيات..".

بطرق متعددة، فيها بسنده عن النبي ﷺ: "أن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة.." (٩٦).

---

(٩٦) في النصف الأول من القرن الحالي جرت "المراجعات" بين شيخ الأزهر وهو الشيخ سليم البشري وبين الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي (١٢٩٠- ١٣٧٧) مدة إقامة الأخير بمصر، وهي مراجعات أطرافها الطرفان وثبت منها التزام المسلمين جميعا أصول الإسلام، وسعة الفقه للخلاف حول الفروع.

ومن اتساع الفقه للخلاف وجدنا المأمون، المعتزلي الفكر، السني الفقه، يولي عهده عليا الرضا إمام الشيعة. ووجدنا الصاحب بن عباد الذي وزر للدولة البويهية ثمانية عشر عاما من ٣٦٧ إلى ٣٨٥ وزيرا معتزلي الفكر لدولة زيدية العقيدة، تحكم دولة الخلافة السنية. ووجدنا الشريف الرضي نائبا للخليفة العباسي. كما وجدنا الدولة الإدريسية دولة سنية يحكمها الأدارسة وهم شيعة من نسل الحسن بن علي لكنهم لا يظهرون التشيع. وابن تومرت يقول إنه – كالأدارسة – من نسل الحسن بن علي ومع ذلك لا يقسر الدولة على التشيع. وكذلك بني حمود من نسل الحسن بن علي يحكمون دولة سنية ولا يقسرونها على التشيع.. بل سنجد فقهاء عظماء – كالطوسي – حجة في المذهب الإمامي وفي مذاهب أهل السنة.

وفي سنة ٥٢٥ عين الخليفة الفاطمي بمصر قضاة أربعة: ثلاثة من مذاهب السنة ورابعا شيعيا لأن الشعب كان سنيا والدولة شيعية. وكان الحافظ السلفي (٤٧٨- ٥٧٦) يلقي دروس الشافعية في مدرسة بناها له ابن السلام الوزير الفاطمي.

وفي الصنف الأخير من القرن الحالي أفتى المرحوم الشيخ محمود شلتوت:"أن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة. فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك. وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب. فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم. ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات".

وقال الشيخ شلتوت عن فتواه بعد.. "ثم تهيأ لي بعد ذلك – وقد عهد إلي بمنصب مشيخة الأزهر – أن أصدرت فتواي في جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول المعروفة المصادر المتبعة لسبيل المؤمنين ومنها مذهب الشيعة الإمامية "الاثنا عشرية".. وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة،فيقرر دراسة هذه المذاهب الإسلامية سنيها وشيعيها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان وتخلو من التعصب لفلان وفلان كما أنه اهتم في تكوين مجمع البحوث الإسلامية بأن يكون أعضاؤه ممثلين لمختلف المذاهب الإسلامية".

والشيخ عبد المجيد سليم شيخ أسبق للأزهر يقول تحت عنوان "القطعيات والظنيات": "قد علمنا من استقراء المذاهب الفقهية وآراء الفرق الكلامية أن في كل منها خطأ وصوابا. ولم نعلم مذهبا من المذاهب الإسلامية المعتبرة خطأ كله أو صوابا كله. وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي أن تطغى العصبية المذهبية على المسلمين. ولا ينبغي أن يكون هم الحنفي مثلا هو الانتصار لكل ما جاء في مذهب الحنفية، ولا أن يكون هم الإمامي أو الزيدي هو الانتصار والتعصب لكل ما جاء به الإمامية والزيدية. وهكذا.

والشيعة يعتقدون أن الأرض لا تخلو من حجة على العباد من نبي أو وصي، ظاهر أو مستور. فالإمام "المهدي" الثاني عشر "غائب" منتظر.

والإمامة منصب ديني لا يجوز التنازل عنه لأنه من الله.

ولما تنازل علي للخلفاء السابقين عليه كان التنازل عن الخلافة الدنيوية، وحدها،وبناء على أسباب.

أمور خلافية في الفقه

يظهر من استعراض كبريات مسائل الخلاف بين الشيعة وبين مذاهب أهل السنة، في الفقه، أنها لا تمس أصل الدين. وأنها تحتمل الاجتهاد، وتتسع للخلاف عليها. كما اتسعت أمور أمثالها للخلاف بين مذاهب أهل السنة ذاتها – إلا زواج المتعة. فالخلاف فيه يتميز مما عداه.

أما الفرائض الدينية فواحدة عندهم وعند أهل السنة.

في "الصلاة": الفروض واحدة لدى أهل السنة ولديهم. وعدد الركعات فيها واحد. أما المندوب عندهم فلا حصر له. وأفضله عندهم "الرواتب"، وعددها "على المشهور" ثمانية للظهر وثمانية للعصر قبل الفريضة وأربع للمغرب بعد الفريضة وللعشاء ركعتان جالسا ويجوز قائما وثماني ركعات صلاة الليل وركعتا الشفع وركعة الوتر وركعتا الصبح قبل الفريضة.. فالرواتب عندهم كثيرة.. ويشترطون القراءة في الصلاة باللغة العربية. ولا يجيزون الترجمة. ويشترطون الجهر بالبسملة.

وفي "الزكاة"، ووجوه البر، لا يختلفون عن جمهور المسلمين. بل هم يضيفون إليها "خمس" الدخل، الذي يحيى للإمام، لإنفاقه في مصارفه الدينية.

بل الواجب على المسلمين أن يأخذوا بما ظهر بالبرهان صوابه وأن يكون قصاراهم الرغبة الصادقة في الوصول إلى الحق دون أن يقيموا وزنا لما سوى الحق. بذلك يصبحون فعلا أمة واحدة".

وفي "الصوم": يرون الكذب على الرسول يفطر الصائم.

وفي "الحج": جهاد لا يسقط بالموت بل يؤديه الوارث عن مورثه. وللغير أن يؤديه عنه من مال للمورث قبل أن تقسم التركة.

ويكثرون من مظاهر "الروح الإسلامي" في العقود. فيستحبون البدء بالبسملة في كل معاملة،ويحرصون على الصبغة العربية.ويكرهون معاملة تارك الصلاة والمستهتر. ويحرمون الاتجار بما يترتب عليه فساد المجتمع.

وفيما يلي أنواع خلاف بينهم وبين أهل السنة، لعلها تبين الإطار العام أو المعالم المهمة، للوفاق وللخلاف بين الفريقين.

١- الجمع بين الصلاتين:

المسلمون مجمعون على جواز الجمع في الحج في جبل عرفة بين الظهر والعصر وفي المزدلفة بين المغرب والعشاء للحجاج خاصة – أما غير ذلك فمحل خلاف.

فالشيعة يجيزون الجمع مطلقا جمع تقديم وتأخير. لعذر وغير عذر. في السفر والحضر. وإن كان التفريق عندهم أفضل – إلا إذا حدث حرج.

وحجة الشيعة مشتقة من صحاحهم ومن تفسير الإمام الصادق لقوله تعالى☹أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا).

فالغسق هو تراكم الليل واشتداد الظلمة. وبهذا تكون أوقات الصلاة الأربعة ممتدة من الزوال إلى نصف الليل. فالظهر والعصر ينتهيان في الغروب. والمغرب والعشاء إلى نصف الليل. أما الصبح فقد اختصها الله بقوله: (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا).

٢ – الأذان:

كان بلال – مؤذن الرسول – يؤذن لصلاة الصبح فيقول بعد "حي على الفلاح" "الصلاة خير من النوم". وأقره الرسول على ذلك.

والشيعة يقولون إن الأذان كان فيه "حي على خير العمل" حتى عهد عمر – كما قال الإمام الباقر. وسبب رفعها من الأذان أن المؤذن وجد عمر نائما عند أذان الصبح فأضاف "الصلاة خير من النوم" – كما أورد الزرقاني في تعليقه على الموطأ – فاستحسنها عمر فأمر أن تضاف إلى أذان الصبح. وأخرج ذلك ابن أبي شيبة(٩٧).

وعلماء الشيعة متفقون على أن قول: "أشهد أن عليا ولي الله" ليس من فصول الأذان وأجزائه. وأن من يأتي به بنية أنه من الأذان فقد أبدع في الدين، أي أدخل فيه ما هو خارج عنه.

---

(٩٧) الشيعة يستدلون على أن الأذان كان فيه عبارة "حي على خير العمل" بما هو ثابت بالسند الصحيح عن الإمام جعفر "لما هبط جبرائيل على رسول الله بالأذان أذن جبرائيل وأقام وعندها أمر رسول الله عليا أن يدعو بلالا فدعاه فعلمه رسول الله الأذان وأمر، به" وكان أذان الإمام جعفر هكذا:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

أشهد

أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله

حي على الصلاة. حي على الصلاة.

حي على الفلاح. حي على الفلاح

حي على خير العمل. حي على خير العمل

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله

ويقول الشيعة: إن إسقاط "حي على خير العمل"كان بأمر من أولي الأمر في عهد عمر، حرصا منهم على أن تفهم العامة أن الجهاد في سبيل الله هو خير العمل، وأن النداء على الصلاة بخير العمل مقدمة لفرائضها الخمسة ينافي التحريض المطلوب للجهاد. فخطب عمر فنهى عنه(٩٨).

٣- المسح على الرجلين:

يختلف الناس في أن مسح القدمين هو الفرض أو الغسل هو الفرض، لأن رسول الله ﷺ توضأ ومسح على قدميه. والشيعة تستدل بمسح الرسول على قدميه على أن المسح هو الفرض – ومروي عن ابن عباس أنه قال: (ما صح عن رسول الله إلا غسلتين ومسحتين. ويفسرون الآية (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) بما يسعفهم في المسح.

٤- الزواج والطلاق:

في الزواج:

المهر لا يقدر قلة ولا كثرة: إلا أن يقصر عن التقويم كأن يقول حبة قمح! أما الكثرة ففيها قول الله: (وآتيتم إحداهن قنطارا)، وإن كان يكره تجاوز مهر السنة الذي أصدقه النبي زوجاته وهو خمسمائة درهم.

---

(٩٨) وقد تعاقبت التصرفات في صدد الأذان من المسلمين. كان عليه الصلاة والسلام يأمر في فجر رمضان بأذانين أولهما يوقظ الغافلين ليتسحروا. والثاني للصلاة. وكان أذان الجمعة فيعهده يبدأ عندما يجلس على المنبر. وهو الأذان الوحيد الذي يؤدى من مكان مرتفع بالمسجد أو القرية كسقفه ومنارته. فلما كثر الناس فيعهد عثمان استحدث نداء آخر علىالزوراء وبقى النداء الأول كماكان – وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥) اكتفى بأذان المنارة. ونقل الأذان الثاني وجعله بين يدي الخطيب.

هذا وليس الكلام القليل بينيدي الخطيب، ولا عند الأذان، ليبطله.

ويجوز النظر إلى وجه المطلوب زواجها دون استئذان ومع الوجه الكفين. وينظرها قائمة وماشية. وللمرأة أن تنظر إلى الرجل – ولا يجوز العزل عن المرأة إلا بإذنها.

وللمرأة – بكرا أو ثيبا – أن تزوج نفسها ممن تريد إذا بلغت رشدها. وإن كان من المستحسن أن تستأذن وليها في ذلك.

في الطلاق:

أما الطلاق الثلاث بفم واحد: فجعله عمر ثلاثا زجرا للناس. وبقى الأمر كذلك ثلاثة عشر قرنا ظهر فيها ما أحوج إلى العودة إلى الأمر الأول.

والشيعة لم يقبلوا عمل عمر من بادئ الأمر. فالطلاق الثلاث في مجلس واحد يقع مرة واحدة.

ولا حلف عندهم بالطلاق على عمل. وهذان إصلاحان أحدثتهما مصر في سنة ١٩٢٩.

وهم يوجبون حضور شاهدين للطلاق، في حين لا يوجبون حضور شاهدين للزواج. فالزوجية تنشأ دون شهود. لكن الطلاق واجب له الشهود. والمتفقهة الآن من أهل السنة في مصر يستحسنون إيجاب حضور شاهدين للطلاق، بل هذا تعديل مطلوب في مشروع قانون للأحوال الشخصية.

وهم يمنعون طلاق المغضب. والمهيج والمنزعج. ويقررون أن الطلاق الذي أمر به الله ورسوله هو الذي يقع إذا حاضت المرأة وطهرت من حيضتها، فأشهد الرجل شاهدين عدلين قبل أن يجامعها على تطليقة. ثم هو أحق برجعتها ما لم تحض ثلاثا. فإن مضت ثلاثة قروء قبل أن يراجعها فهي أملك لنفسها فإن أراد أن يخطبها مع الخطاب خطبها. فإن تزوجها كانت عنده.

وليس للمريض أن يطلق. وله أن يتزوج. فإن تزوج ودخل بها فجائز. وإن لم يدخل ومات بطل الزواج. ولا مهر ولا ميراث للزوجة.

فلنلاحظ اليسر في الزواج عندهم. والتشدد في الطلاق. ورعاية المرأة في كل حال والحرص على الأسرة.

٥- زواج المتعة: "إلى أجل معين":

والشيعة يسمونه الزواج المؤقت. ويرجعونه إلى قوله تعالى: (فما استمعتم به منهن فآتوهن أجورهن). والمفسرون متفقون على أن جماعة من الصحابة العظماء أفتوا بإباحتها منهم ابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين. بل كانوا وهم يتلون الآية ينطقون بتفسيرها فيقرءون (فما استمعتم به منهن)، (إلى أجل مسمى). فالمشروعية ثابتة والعمل بها ثابت.

وإنما يجزم أهل السنة بأنها أبيحت لدواعيها ثم نسخت بأحاديث جازمة. والشيعة لا يرونها أحاديث ثابتة. ويقولون إن الحلال القطعي الثبوت لا ينفيه تحريم غير قطعي.

وهم يقولون: إن المتعة سائغة في السفر لطلب العلم والتجارة والجهاد، فلقد كانت مشروعيتها للسفر والجهاد. وإنها زواج عادي، لولا أنه إلى أجل. فالزوجة في زواج المتعة تعتد إذا انتهى الأجل، ككل طلاق. ولا بد من المهر.. والابن من الزواج هو ابن عادي، وله الميراث والنفقة. أما الزوجة فلا نفقة ولا ميراث لها، إلا إذا اشترطت. وليست النفقة من لوازم الزوجية،فالناشز زوجة ولكنها بلا نفقة. ومن النساء من ترث وليست زوجة. كمن طلقت في مرض الموت ومات زوجها قبل مضي سنة.

والثابت أن عمر أعلن تحريم المتعة إذ خطب الناس فقال: "متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر ﷺ، وأنا أنهي عنهما.." وأنه حرمها وهو بصدد قضية لعمرو بن حريث ثم أطلق النهي.

وأهل السنة يقررون أن نهي عمر عنها كان إعلانا لتحريم ثابت قبل ذلك.

ولم تقبل الشيعة نهي عمر من بادئ الأمر بل قال علي: "لولا نهي عمر عن المتعة ما زنى إلا شفا "قليل أو مشرف على الهلكة" أو سفي".

وثبت عن الإمام الصادق قوله: ثلاث لا أتقي فيهن أحدا متعة الحج ومتعة النساء والمسح على الخفين.

ومن نواد يحيى بن أكثم قاضي المأمون أنه سأل شيخا من أهل البصرة بمن اقتديت في جواز المتعة؟ قال: بعمر. قال: كيف وكان من أشد الناس فيها؟ قال: إنه صعد المنبر فقال: أيها الناس. متعتان أحلهما الله ورسوله لكم. وأنا أحرمهما عليكم وأعاقب عليهما. فقبلنا شهادته ولم نقبل تحريمه(٩٩).

---

(٩٩) كان يحيى مع المأمون عندما رأى – وهو على رأس جيشه لمحاربة الروم – جواز المتعة، فهي أول ما شرعت شرعت في الحرب، فأمر فنودي بتحليلها للمحاربين. قال يحيى لصاحبين كانا معه في سفر المأمون: بكرا إليه غدا فإن رأيتما للقول وجها فقولا. وإلا فأمسكا حتى أدخل. فدخلا عليه فسمعاه مغتاظا يقول متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر وأنا أنهي عنهما. ومن أنت.. حتى تنهى عما فعله رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه؟ "يقصد عمر بكلامه" – فأومأ أحد الرجلين لصاحبه وقال: رجل يقول في عمر بن الخطاب.. نكلمه نحن! وأمسكا حتى جاء يحيى.. فقال المأمون ليحيى: مالي أراك متغيرا؟ قال: هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام.

قال المأمون: وما حدث في الإسلام؟

قال: النداء بتحليل الزنا.

قال المأمون الزنا!

قال نعم المتعة زنا – قال تعالى: (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أزوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا. قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث... ولها شرائطها؟ قال: لا. قال يحيى: فقد صار متجاوز هذين من العادين. وهذا الزهري روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها.

وقال المأمون: محفوظ هذا من حديث الزهري؟

قال يحيى: رواه جماعة منهم مالك. قال: أستغفر الله نادوا بتحريم المتعة.

ولا غرابة في أن يعدل المأمون. فلقد طالما جلس هو وأخوه الأمين وأبوهما – الرشيد – في حلقة مالك.

الميراث:

للشيعة تفسير في المواريث في صالح البنات، لذواتهن، ولمن يتوسل للميراث بهن.

يقول تعالى: (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت. فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك. وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) – وهم يرون البنت ولدا في اللغة والعرف، ولذلك يعطون البنت دائما. ولا يعطون الأخت أو الأخ إن كان هناك بنت أو ابن فكلاهما ولد. وهم يسقطون الوصية ما دام هناك ولد "ابن أو بنت".

ولي يحيى القضاء في البصرة وعمر، نحو عشرين سنة. فاستصغر، أهل البصرة قال لهم: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجه به النبي قاضيا على مكة يوم الفتح. وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي قاضيا على مكة يوم الفتح. وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي قاضيا على اليمن. وأنا أكبر من كعب بن أبي الذي وجه به عمر قاضيا على البصرة.

وكان يحيى حسن التأتي للأمور ومنها سياسة القضاء والخلفاء: دخل على المأمون رجل يشكو وكيلا للمأمون أن اشترى منه جواهر بثلاثين ألف دينار. فقال المأمون: لعل الوكيل اشترى لنفسه أو سلم الشاكي المال.. قال الشاكي: فإذن أدعوك إلى القاضي الذي نصبته لرعيتك. وجئ بيحيى بن أكثم. فقال للمأمون: إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء. قال: قد فعلت. قال: فإني أبدأ بالعامة أولا يصلح المجلس للقضاء.. ففتح الباب – وقعد في ناحية من الباب وأذن العامة. ثم دعي بالرجل. فقال له يحيى ما تقول؟ قال: أقول: أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين.

فنادى المنادي فإذا المأمون قد خرج ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى وهو جالس. فطرح المصلى ليقعد عليها فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس.. فطرح للرجل مصلى آخر. ثم نظر في الدعوى. وطالب الرجل المأمون باليمين فحلفها المأمون.

ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه. قال المأمون: ما أقامك؟ قال إني كنت في حق الله جل وعز حتى أخذته منك. وليس الآن من حقي أن أتصدر عليك..

فأمر المأمون أن يحضر ما ادعى على الرجل من المال فقال له: خذه إليك والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلا خوفا من هذه الرعية لعلها ترى أني تناولتك من وجه القدرة وإنها لتعلم الآن أني ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال.

وللشيعة قاعدة: أن كل فريضة لم يهبطها الله إلا إلى فريضة، تكون مقدمة عند "العول". وكل فريضة، إذا زالت عن فرضها، لم يكن لها إلا ما بقى، تكون مؤخرة.

مثال ذلك للزوج النصف فإن هبط له الربع. فإن دخل عليه في التقسيم ما يزيد عن السهام رجع إلى الربع المفروض. ولا يزيله عن الفرض شئ. ومثله الزوجة والأم. أما البنات والأخوات فلهن النصف والثلثان. فإذا أزالتهن الفرائض عن ذلك لم يكن لهن إلا ما بقي. فإذا اجتمع ما قدم الله وما أخر بدئ بما قدم الله فأعطي حقه كاملا. فإن بقي شئ كان لما أخر. وهو تطبيق لحديث ثابت عندهم. أورده الشهيد الثاني – وأورده الحاكم في المستدرك وقال إنه صحيح على شرط مسلم – ويستشهد أهل السنة بآيات ويستشهد الشيعة بآيات.

وهم ينفردون بما يسمى "الحبوة" للولد الأكبر: ملابس أبيه وثيابه ومصحفه وخاتمه زيادة على حصته في الميراث – كما ينفردون بعدم توريث الزوجة من عقار الزوج ورقبة الأرض عينا وقيمة، لأخبار وردت عن الأئمة مروية عن النبي.

٧- متعة الحج:

ينشئ الحاج إحرامه من ميقاته "أماكن القصد إلى البيت الحرام" والمتمتع يأتي مكة ويطوف بالبيت. ثم يقصر ويحل من إحرامه ويقيم بعد ذلك حلالا. ثم يفيض إلى المشعر الحرام. ثم يأتي بأفعال الحج بإحرام جديد. وهذان التقصير والإحلال تيسير بإباحة محظورات الإحرام في المدة المتخللة بين الإحرامين. وهذا ما كرهه عمر وحرمه قائلا: هي سنة رسول الله لكني أخشى أن يعرسوا بهن – نسائهم – تحت الأراك ثم يروحون بهن حجاجا. فخطب ونهى عن هذه المتعة مع متعة الزواج.

ومع ذلك فابن عمر يقول عن عمل أبيه: أرأيت إن نهى عنها أبي وصنعها رسول الله أأمر أبي أم أتبع أمر رسول الله؟ وابن عباس كعلي لا يحرمان ما حرمه عمر.

ولما قدم علي من اليمن وجد فاطمة الزهراء قد حلت ولبست صبيغا. واكتحلت، فأنكر ذلك عليها فقالت: إن أبي أمرني بهذا. فذهب إلى رسول الله فقال: صدقت صدقت.

والشيعة لهذا يرون متعة الحج.

٨- التفسير بالتأويل:

يروي الشيعة عن النبي أنه قال: "إن للقرآن ظاهرا وباطنا ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن". ويروون عن علي أنه قال: "ما من آية قرآنية. إلا ولها ظاهر وباطن. وحد ومطلع" ويروى هذا البيان عن "سهل التستري"، من المفسرين الصوفيين. وأنه أضاف: فالظاهر التلاوة. والباطن الفهم. والحد حلالها وحرامها. والمطلع إشراف القلب على المراد به فقها عن الله عز وجل.. قيل له: ما الباطن؟ قال: فهمه.

ويروون عن الإمام الصادق أنه قال: "إن في كتاب الله أمورا أربعة. العبارات والإشارات، والحقائق واللطائف. فالعبارات للعوام. والإشارات للخواص. واللطائف للأولياء. والحقائق لأنبياء الله".

والمتتبع لتفسيرات الإمام الصادق وأجوبته على المسائل يجدها تنبع من بحر عميق في فهم القرآن واللسان العربي، أمكنه أن يكشف للناس بين الفينة والفينة ما فيه من شمول وما بينه وبين السنة من صلة الأصل بفرعه. وبذلك قدر الإمام أن يفسر القرآن بالقرآن – ففي بيته نزل – وأن يجد للحديث الواحد أصولا عدة، في آيات متفرقة، بمجرد أن يدلي إليه سائل بسؤال! وهو منهج سيتتابع عليه عظماء الأئمة من أهل السنة. وفي طليعتهم أحمد بن حنبل.

ولا يسوغ لنا أن نعتبر تفسيرات الصادق من أضرب التفسير بالرأي أو بالمأثور أو بهما – وهي مصنفة بين عقلي ونقلي وصوفي ورمزي وقصصي.. الخ – وفي البعض منها تأويل باطني.

وابن عطية من كبار مفسري أهل السنة ينفي صحة نسبة تفسير باطني أو رمزي إلى الإمام الصادق، ويقول: ".. وهذا قول جار على طريقة الرموز. ولا يصح عن جعفر بن محمد رضي الله عنه ولا ينبغي أن يلتفت إليه".

وإليك مثلا – بين نظائر تجل عن الحصر – لاستعمال اللسان العربي في التفسير: يقول زرارة للإمام الصادق – من أين علمت أن المسح ببعض الرأس؟ ويجيب الإمام: لمكان الباء في قوله تعالى: (وامسحوا برءوسكم)، يقصد أن الباء للبعضية.

ولقد تتابع على هذا التفسير الأئمة في اللغة والفقه. جاء في المصباح المنير في مادة "بعض" أن الباء في قوله تعالى: (وامسحوا برءوسكم) للتبعيض... ونص على مجيئها للبعض ابن قتيبة.. وأبو علي الفارسي وابن جني. وذهب إلى مجئ الباء بمعنى البعض الشافعي وهو من أئمة اللسان. وقال بمقتضاه أحمد وأبو حنيفة.

ومن استعمال ظاهر اللسان العربي تفسير "الكوثر" بأنه الذرية الكثيرة. في قوله تعالى: (إنا أعطيناك الكوثر). فهي صيغة مبالغة من الكثرة "فوعل" يؤيد ذلك الآية التي تجئ فيما بعد (إن شانئك هو الأبتر) والأبتر من لا عقب له. وبهذا ساغ تفسير الشيعة بأن الكوثر هو الذرية. وقد رزق الله النبي الذرية الكثيرة من فاطمة. فهي الكوثر المقصود.والآخرون يقولون: إن الكوثر نهر في الجنة. وغيرهم يؤولونه بأنه النبوة.

ولقد أسلفنا طائفة من تفسيرات الإمام، كالخوف من عدم العدل بين النساء، والإنفاق من رزق الله، ورؤية الله جل شأنه، وقتل النفس بإخراجها من الهدى إلى الضلال، والتفسيرات التي جعلت أبا حنيفة يقول عن آية: (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) لكأني ما قرأتها قط في كتاب الله ولا سمعتها إلا في هذا الموقف. وهي جميعا صادرة عن فهم دقيق للسان العربي الذي نزل به القرآن.

والتفسير بالظاهر ممن يفهم البلاغة العربية، ومجازاتها المتعددة، والاستعارة، والإيجاز اللفظي، وهو بعض خصائص الإعجاز البياني في القرآن، لا ينفي استعمال العقل، بل فيه مجال واسع له. ولا ينفي القيمة العظيمة لتفسير الزمخشري المعتزلي، وهو حجة في اللغة، وحجة في الجمع بين الظاهر وبين وجوه "الرأي"، بالمعاني الدقيقة وأسرار البلاغة[١٠٠].

---

(١٠٠) يؤول المعتزلة الألفاظ ليفسروا معاني الآيات طبقا لأصولهم. وعلى ذلك أولوا الآيات التي قد تنم عن التشبيه والجهة الجسمية.

وممن أثارهم الإعجاب به الإمام يحيى بن حمزة العلوي (٧٤٩) صاحب كتاب الطراز.

وما من تفسير ثبت عن إمام عن أهل البيت إلا تلقته العقول بالقبول، لأنه لا يغاير النص من القرآن والسنة. وإنما يشرحهما في نورانية باهرة[١٠١]، في حين أن المعتزلة يؤولون ليخضعوا المعنى لأصولهم الخمسة[١٠٢]. وهذا خلاف عظيم بين المؤولين وبين الإمام جعفر والشيعة الإمامية.

أما الاسماعيلية – فلهم بعض التأويلات الباطنية التي تهمل المعنى الظاهر وتحمل الألفاظ ما لا تحمله.

والتفسير بالرأي يقوم على قاعدة كصمام الأمان للذين ينهجونه. فبالكتاب آيات محكمات وأخر متشابهات والمحكمة آيات لا يتمارى في معناها أحد. فإذا وردت آية متشابهة فسرت على أساس الآية المحكمة. مثل قوله تعالى: (إلى ربها ناظرة) تفسير على أساس قوله تعالى: (لا تدركه الأبصار) فيكون معناها الرضى عنها وتوقع النعمة من الله. ومثل قوله: (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) تفسر على أساس قوله: (إن الله لا يأمر بالفحشاء). وأكثر المؤولين يلجئون للمجاز. وفي القرآن كثير منه مثل قوله تعالى: (يد الله فوق أيديهم) فمعناها القدرة – وهم ككل المفسرين – يبدأون من أن الله تعالى ليس كمثله شئ. أما التفسير بالمأثور فتتصدر، مدرسة الإمام الطبري: يجمع الأقوال والآثار ويختار منها.

(١٠١) إليك مثلا تفسير "الإمام العسكري" للحروف المقطعة مثل (أ. ل. م..) في فواتح السور يراها تنبيها على أن هذا الكتاب الذي أنزله الله هو هذه الحروف المقطعة. وأنه بلغتكم وهجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين. وما يزل هذا التفسير في طليعة تفسير الحروف المقطعة في أوائل السور.

(١٠٢) أصول المعتزلة الخمسة:

١- التوحيد الذي ينفي عن الذات صفات الأجسام والمكان. وأهل السنة يرون صفات الله خاصة به وأنه تعالى "كما وصف نفسه". فليس في ذلك تشبيه لله بخلقه.

٢- العدل وفحواه أن الله لا يأمر إلا بالحسن ولا ينهى إلا عن القبيح وما يفعله الناس عمل من أعمالهم ولذلك يثابون ويعاقبون. وأهل السنة يقولون: إن الله خالق العمل والعبد كاسب له.

٣- الوعد والوعيد أو الثواب والعقاب ملازمان للفعل وأهل السنة يرون التوبة قد يقبلها الله من مرتكب الكبيرة.

٤- المنزلة بين المنزلتين. فمرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر بل فاسق وإن كان عقابه أقل من الكافر.

٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع اشتدادهم في ذلك عندما كانت السلطة في أيديهم.

والإسماعيلية فرقة شيعية لم تظهر إلا بعد موت الإمام جعفر بقرن أو أكثر.

٩- البداء: ومفهومه الشائع: الظهور بعد الخفاء:

نسب إلى الشيعة القول بأن الله يبدو له فيغير ما قرره لظهور طارئ. وأطلقوا على ذلك لفظ البداء. والشيعة الإمامية لا تقول شيئا بهذا المعنى – بل تعتقد أن الله عالم بكل شئ... وعلمه أزلي بما كان وما يكون. يقول الإمام الصادق: "ما بدا لله في شئ إلا كان في علمه قبل أن يبدو له" وسأله منصور بن حازم.. هل يكون اليوم شئ لم يكن في علم الله بالأمس؟ قال: "لا.. من قال هذا فقد أخزاه الله" قال منصور: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس في علم الله؟ قال: "بلى قبل أن يخلق الخلق" ويروى عنه قوله: "إن الله لم يبد له عن جهل".

فجميع الكائنات الممكنة، قبل أن تخلق، قدرها الله تعالى وكتبها بمشيئته وإرادته في اللوح المحفوظ. والله تعالى يقول: (يمحو الله مايشاء ويثبت) وكل ما يتعلق به القضاء، والتقدير، لا بد له من تعلق الإرادة والمشيئة بمحوه وإثباته. وقد يكون وجوده، وتكوينه بإرادة الله تعالى، منوطا أي مشروطا، بتحقق أمر آخر. فيكون قد جرى في علمه تعالى أن يوجد إذا حصل ما اقتضت المصلحة، التي يعلمها الله، أن تكون شرطا.

والله تعالى يقول: (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا) ويقول: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون).

وروى أحمد في المسند إن النبي قال: "إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه. ولا يرد القدر إلا الدعاء. ولا يزيد في العمر إلا البر".

وعن أبي سعيد أن النبي قال: "ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يستجيب لدعوته أو يصرف عنه من السوء مثلها أو يدخر له من الأجر مثلها. قالوا: يا رسول الله إذن نكثر. قال: الله أكثر".

ومن القضاء علم مخزون لا يطلع الله عليه أحدا. فلا بداء فيه. وقضاء أخبر به ملائكته ورسله. فهذا أيضا لا بداء فيه. وقضاء معبر عنه بلوح المحو والإثبات. وفي هذا القسم يرد قول الشيعة بالبداء (يمحو الله ما يشاء ويثبت).

والشهرستاني ينفي عن الإمام جعفر ما ينسب إليه من أقوال في الغيبة والبداء بمعنى تغيير إرادة الله.

١٠- الرجعة:

القول "برجعة" "المهدي" المنتظر ليس مجمعا عليه في الفكر الشيعي. فمنهم من لا يعتبرها عقيدة. ومنهم من يأخذ بها، كما أخذ بعض أهل السنة، ببعض أنباء الغيب وحوادث المستقبل وأشراط الساعة. مثل نزول عيسى من السماء، وظهور الدجال الذي يظهر قبل الإمام بقليل فيقتله الإمام، وخروج السفياني – الذي يخرج من الوادي اليابس حتى ينزل بدمشق، فذلك اختراع لحساب بني أمية ضد بني مروان، ومن قبلهم وجد "القحطاني" المنتظر –٠ رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه – بل ادعى عبد الرحمن بن الأشعث أنه القحطاني المنتظر.

بل إن سعيد بن المسيب علامة التابعين يعتبر عمر بن عبد العزيز المهدي المنتظر "للمدينة". وقد سمى العباسيون لهم مهديا "الخليفة المهدي بن المنصور".

وأبو جعفر المنصور يقول عن محمد النفس الزكية: "هذا مهدينا أهل البيت". ولقد سمى الكثيرون من يتولونهم بالمهدي.

فأتباع محمد بن الحنفية لقبوه بالمهدي. وابن صرد يلقب الحسين بالمهدي. وأشياع المختار الثقفي لقبوه بالمهدي.. بل إن كثرة الزيدية يقولون إن كل واحد من الأئمة مهدي. فزيد

مهدي. وابنه يحيى مهدي. ومحمد بن عبد الله بن الحسن "النفس الزكية" مهدي. وكل فاطمي شجاع عالم زاهد يدعو إلى الحق بالجهاد فهو لدى الزيدية إمام "مهدي"(١٠٣).

ومن الناس من ينتظر عودة من يسمونهم كذلك.

وفي مسند أحمد بن حنبل: سمعت عليا يقول: قال رسول الله: "لو لم يبق من الدنيا إلا يوم بعث الله عز وجل رجلا منا يملؤها عدلا كما ملئت جورا".

ويقول بعض الشيعة: إن عقيدة البعث أصل مجمع عليه، وإنه عندما يؤخذ القول بالرجعة على أنها بعث فلا وجه لنفي العدالة عتمن يفهمها كذلك(١٠٤).

ولقد رددت كتب السنن الكلام في المهدي وظهوره. ومنها سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. ولم يرد ذكره في صحيحي البخاري ومسلم. وتكلم البعض في إسناد الأحاديث المروية في السنن. وفي الوقت ذاته نجد السيوطي في كتابه "العرف الوردي في أخبار المهدي" وابن حجر في كتابه: القول المختصر في أخبار المهدي المنتظر "وهما من فحول علماء أهل السنة"، وآخرين غيرهم. يكتبون عن المهدي، ويروون أحاديث في ظهوره.

---

(١٠٣) يقول الإمام محمد آل كاشف الغطاء من أئمة الشيعة "الإمامية" المعاصرين: "وليس التدين بالرجعة في مذهب الشيعة بلازم. ولا إنكارها بضار وإن كانت ضرورية عندهم ولكن لا يناط التشيع بها وجودا أو عدما".

ويقول: "وحديث الطعن بالرجعة كان هجيري علماء السنة.. فكان علماء الجرح والتعديل إذا ذكر بعض العظماء من رواة الشيعة ومحدثيهم ولم يجدوا مجالا للطعن فيه لوثاقته وورعه وأمانته نبذوه بأنه يقول بالرجعة فكأنهم يقولون يعبد صنما أو يجعل لله شركا. ونادرة مؤمن الطاق مع أبي حنيفة معروفة. وأنا لا أريد أن أثبت في مقامي هذا ولا غير، صحة القول بالرجعة وليس لها عندي من الاهتمام قدر قلامة ظفر".

(١٠٤) يقول الشيخ محمد رضا المظفر في كتابه "عقائد الشيعة": من يستغرب الرجعة يكون بمثابة من يستغرب البعث فيقول: "من يحيي العظام وهي رميم" فيقول: (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم). وينهي بحثه في هذا الصدد بقوله: على كل حال. فالرجعة ليست من الأصول التي يجب الاعتقاد بها. وإنما اعتقادنا بها كان تبعا للآثار الصحيحة والواردة عن آل البيت الذين ندين بعصمتهم من الكذب. وهي من الأمور الغيبية التي أخبروا بها ولا يمتنع وقوعها.

وفي تفسير الأحاديث إذا صحت تتغاير الأنظار[١٠٥].

وابن الجوزي الحنبلي يسمي القائلين بالرجعة في كتابه "تلبيس إبليس" "الرجعية". ولقد أسلفنا تضعيف بعض محدثي أهل السنة للقائلين بالرجعة.

---

(١٠٥) في كتب أهل السنة أقاويل شتى: يتكلم الشعراني عن الولاية أنها "مواهب مخصوصة للأوتاد والأبدال والأئمة من أصحاب الدوائر والأعداد وأصحاب النوب والأفراد" ثم يقول: "وقد اجتمعت هذه المراتب كلها في خاتم الولاية المحمدية وهو المهدي أخو عيسى عليهما السلام، في الختمية، لقوله في حقه يقفو أثري ولا يخطئ. كما جمع له مرتبة الدعوة إلى الله تعالى بالسيف وإقامة الحجة وهذه مرتبة العصمة التي لا يتصف بها إلا نبي أو خليفة الله تعالى.. ثم اعلم أن العلوم الحاصلة عن طريق الكسب والوهب من علوم التوحيد يجب سترها عن الناس لما فيها من الغرابة والتبري من المعقول والمنقول. وقد اقتفت الكمل من الأولياء هذه الآثار عن الصحابة والتابعين شفقة على ضعفة الناس الجاهلين بهذه الطريقة اتباعا لقوله ﷺ: "حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله".

ومن الآخذين بسبيل التصوف قائلون بعلم الباطن وما فيه. وفي قواميسهم شطحات ومقولات كثيرا ما تتجه اتجاهات غريبة عن الإسلام كمقولات "وحدة الوجود، والفناء،والمحو والحلول" وما قول الحلاج من أقوالهم ببعيد "أنا الحق وما في جبتي إلا الحق"!!

ولقد ازدهرت في القرنين السادس والسابع الهجري أفكار فلسفية على تصوف أهل السنة. وهو متمثل في زهد الصحابة وحده.

ومن هذه الأفكار فكرة تطهير الروح بالارتياض والخلاص من مطالب الجسد. يصل بها الإشراقيون إلى القول بأن الرياضة الروحية وتهذيب النفس هما الوسيلة الوحيدة للمعرفة. أما الغلاة فيعذبون الجسد تعذيب البراهمة والبوذيين الهنود، وآخرون يأخذون من الهنود وفكرة الوحدة الثابتة الجامعة لكل ما في الوجود. فالكل واحد.

والحلاج (٣٠٩) ومن ذهب مذاهبه يقولون بالحلول الإلهي في بعض المخلوقين.

ومن المسلمين من أصبحت "الوحدة" أنشودة على لسانه مثل محيي الدين بن عربي. ومنهم من وصل الذات الإنسانية الفانية بذات الله الخالدة، وصلا سبيله المحبة التي تبلغ درجة السكر والغيبوبة عن الحس، مثل ابن الفارض (٦٣٨) وابن عطاء السكندري. وعند بعضهم كلام جيد يفهمه البعض فهما ضارا – وقد ترتب على هذه الأفكار نشوء أفكار أخرى، كالإيمان بالخوارق!! وكرامات الأولياء!! وأصبح الولي عند البعض مكشوفا عنه الحجاب مادام يفنى في ذات الله ويخرج عن المألوف!!